التنوع الفكري وأثره في بناء النهضة من منظور إسلامي

بقلم الدكتور

رمضان عبدالباسط سالم رفاعي

الأستاذ المشارك بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة – كلية الشريعة وأصول الدين – جامعة الملك خالد – أبها -المملكة العربية السعودية

وأستاذ العقيدة والفلسفة المساعد بقسم أصول الدين كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بجامعة الأزهر بالقاهرة

الملخص

مشكلة البحث وأهدافه :

تتمحور مشكلة البحث في ما اعترى الأمة الإسلامية عموما والدول الاسلامية والعربية خاصة من حالة التردي والضعف ، وفقدان الهوية المسلمة لقوتها ، وما أصاب الوحدة الإسلامية من هزال وتذبذب وصل بالمسلم في العصر الحاضر الى شعور بالتيه الذي يكاد يخرجه من دينه أو يسلمه إلي الخروج منه في ظل التصارع الحضاري والثقافي المحيط به من كل جانب وهنا يحاول البحث الإجابة عن بعض التساؤلات على سبيل الاسهام في حل لبعض قضايانا المعاصرة ومنها :

١)ما المقصود بالتنوع الفكري ؟ وما سماته ؟.

٢)وهل التنوع الفكري حقيقة قرآنية وسنة كونية؟

٣)وكيف يكون التنوع خطرا وعائقا أمام المشاريع النهضوية ؟

٤)هل يبلغ الأمر بذلك التنوع وهذه الكثرة أن يساهم في تحقيق نهضة ترنو إليها بلادنا العربية ، وأخواتها من بلاد سرى فيها التمزق والانهيار وهى تحاول من جديد إعادة رسم معالمها وفق منهج الإسلام؟.

و هنا يمكننا أن نحدد بعض أهداف البحث :

ولعل أحد أهدافه هو محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات ، وكذلك الاجتهاد في رفع الالتباس عن هذه الثنائية أو التناقض الظاهري (العالم الإسلامي **الواحد**/ الأنماط الثقافية **المتعددة**).

والهدف الثاني: هو محاولة معالجة الإشكال الممكن حصوله من القول، في الوقت ذاته، بين «خصوصية» تميز العالم الإسلامي، وبين «عالمية» يتطلع إليها أو يدعيها على الأقل.

وأما الهدف الثالث: والأخير، الذي نود بلوغه فهو توجيه الانتباه إلى أن مستقبل العالم الإسلامي (في المستوى الفكري والثقافي) رهين بالقدرة على رفع التحديات التي تقوم أمامه . تحديات خارجية كبرى، وتحديات أكبر وأشد عسراً ،وهي تلك التي تأتيه من داخله ، هذه التحديات التي تعني في نهاية الأمر، الثبات أمام اختيار صعب بين الاندثار والانطواء على الذات، وبين الأخذ بمستلزمات العالمية (وهذه غير العولمة) من جهة أولى، ومقتضيات الهوية الإسلامية من جهة ثانية.

Abstract

Research problem and objectives

The problem of research is centered on what the Muslim Ummah in general and the Islamic and Arab countries, especially the state of deterioration and weakness, and the loss of the Muslim identity of its strength. The Islamic unity has been weakened and fluctuated in the contemporary era to a sense of a tendency that almost removes it from its religion or allows it to emerge from it. The cultural and cultural struggle surrounding it from each side and here tries to answer some of the questions in order to contribute to the solution of some of our contemporary issues, including:

1) What is intellectual diversity? What are its features?
2) Is intellectual diversity a Qur'anic fact and a cosmic year?
3) How can diversity be a threat to developmental projects?
4) Is it a matter of such diversity and many that contribute to the achievement of the renaissance of the Arab country, and sisters from a secret country where the rupture and collapse is trying to redraw the parameters according to the approach of Islam?

Here we can define some of the research objectives: Perhaps one of its objectives is to try to answer these questions, as well as to strive to raise the ambiguity about this duality or the apparent contradiction (the one Islamic world / multiple cultural patterns).

The second objective is to try to address the possible problem of saying, at the same time, between the "peculiarity" of the Islamic world, and the "universal" that it aspires to or claims at least. The third, and last, objective is to draw attention to the fact that the future of the Islamic world (at the intellectual and cultural level) depends on the ability to raise the challenges facing it. These challenges, which ultimately mean the stability of a difficult choice between extinction and self-containment, and the introduction of the requirements of the world (and this is not globalization) on the one hand, and the requirements of Islamic identity On the other hand.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد

إنّ وحدة الأمة تتعرض اليوم لتحديات كبيرة على مستويات مختلفة، فمن تشتت سياسي، إلى غزو ثقافي، إلى تسلّط أجنبي ظاهر وخفي، إلى فتن مذهبية تظهر بين الحين والآخر في هذا القطر أو ذاك من الأقطار الإسلامية،

كما تعيش الأمة الإسلامية بصفة عامة ومصر بصفة خاصة حالة ضعف وإنهاك، وظروفا قاسية ،وأزمات محكمة الإغلاق، وتراجعا في المكانة الحضارية، وترنحا في الدور الحضاري بين شعوب العالم والأمم الحية على الأرض، وذلك في ظل إصرار أعدائها من الداخل والخارج على حصارها، وإعاقة مسيرة تقدمها، ومنعها من النهوض الحضاري، ومن حمل الرسالة السماوية إلى العالم، وسعي الأعداء لإغراقها في بحار المؤامرات والدسائس لإطفاء جذوة الأمل فيها بالنهوض الحضاري، والحفاظ على أصالة الإسلام وحضارته، وتبليغ الرسالة إلى العالم، وهو دأب أعداء الإسلام منذ فجره قال الله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ (التوبة: ٣٢).

كما يرى الناظر إلى أحوال الدول العربية والإسلامية،–وفى مقدمتها مصرنا الغالية– أنها مازالت بعيدة عن الوحدة، وتغيب عنها مقومات النهضة المنشودة، وسط حالة الفوضى والتمزق والتشتت التي تعيشها، مما جعل الحديث عن كيفية تحقيق النهضة العربية والإسلامية يحتل جانباً هاماً

من النقاشات التي تدور الآن بعد انتصار إرادة الشعوب والقضاء على بعض الأنظمة المستبدة التي كرست حالة الخنوع والخضوع للغرب، وهو ما يدعو علماء المسلمين إلى أن يولوا هذه القضية الاهتمام المناسب لحجمها، فينبروا لنشر ثقافة الوحدة بين الناس، ويهبوا لرأب الصدوع كلما لاح منها لائح، وينزّلوا الحكم الشرعي بوحدة الأمة في العقول والضمائر المنزلة اللائقة حتى يصير المسلم معتقدا أنّ الحفاظ على الوحدة هو من صلب إيمانه، وأنّ العمل على صدعها إثم كبير يضعضع فيه ذلك الإيمان.

والنهضة وثبة في سبيل التقدم الاجتماعي، وتعتمد اعتمادا أساسيا على مقومات لابد منها لأي نهضة، وفى مقدمتها الحالة الفكرية والوجدانية التي ترتبط بالحركة والنشاط واليقظة والصحوة التي سبقتها غفلة وثُبات ونوم تسبب في فوات أمور مهمة تتطلب سرعة الاستنهاض والنهضة.

ومن سنة الله في كونه أن جعل الخلاف والتنافس والتنوع بين بني البشر في كل ميادين الحياة، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ (هود:١١٧،١١٨) .

أهداف البحث:

و هنا يمكننا القول: إن التنوع الثقافي بكل صوره سمة من سمات العالم الإسلامي، وملمح من ملامح الخصوصية فيه، وأهم ما يميزه، فهل يبلغ الأمر بذلك التنوع وهذه الكثرة أن يساهم في تحقيق نهضة ترنو إليها مصرنا الغالية وأخواتها من بلاد سرى فيها التمزق والانهيار وهى تحاول من جديد إعادة رسم معالمها وفق منهج الإسلام؟؟

إن أحد أهداف هذا البحث هو محاولة الإجابة عن هذا السؤال، وكذلك الاجتهاد في رفع الالتباس عن هذه الثنائية أو التناقض الظاهري (العالم

الإسلامي **الواحد**/ الأنماط الثقافية **المتعددة**).

والهدف الثاني: هو محاولة معالجة الإشكال الممكن حصوله من القول، في الوقت ذاته، بين «خصوصية» تميز العالم الإسلامي، وبين «عالمية» يتطلع إليها أو يدعيها على الأقل.

وأما الهدف الثالث: والأخير، الذي نود بلوغه فهو توجيه الانتباه إلى أن مستقبل العالم الإسلامي (في المستوى الفكري والثقافي) رهين بالقدرة على رفع التحديات التي تقوم أمامه . تحديات خارجية كبرى، وتحديات أكبر وأشد عسراً ،وهي تلك التي تأتيه من داخله ، هذه التحديات التي تعني في نهاية الأمر، الثبات أمام اختيار صعب بين الاندثار والانطواء على الذات، وبين الأخذ بمستلزمات العالمية (وهذه غير العولمة) من جهة أولى، ومقتضيات الهوية الإسلامية من جهة ثانية.

لهذا أقدمت على طرح قضية من أهم قضايا الفكر المثارة في بيئة المسلمين بل وخارجها وهي تفرض نفسها وبإلحاح على مائدة البحث العقدي والفكري لتشابكها وتعقيداتها الملموسة لاسيما ونحن نواجه دعوات سافرة على كافة الأصعدة الثقافية داخليا وخارجيا تنادي بالتغيير والتطوير وهو ما أوجد اتجاهات تنزع الى التخلي عن الأصيل برمته ، وقبول المعاصر بكل أطيافه وأشكاله ، وفي المقابل دعوات ترفض الحداثة بكل صورها ممسكة بالأصالة بكل أشكالها .وذلك في الوقت الذي تتعالى أصوات داعية إلى نهضة فكرية شاملة تحقق للمجتمعات المسلمة قوتها وثباتها أمام الوافد الجديد وتروم إثبات الذات المسلمة في وجه الدعوات الهادمة لكل ما هو إسلامي أصيل....!!!!

وقد جعلت ورقتي البحثية تحت عنوان:

((التنوع الفكري وأثره في بناء النهضة من منظور إسلامي))

منهج الدراسة:

اعتمدت في دراستي لهذا الموضوع على المنهج الوصفي وكذا الاستقرائي والاستنباطي، كما اعتمدت على المنهج التاريخي الوصفي بمقدار ما تطلّبته محاور الدراسة .

وأما أدوات البحث:

* ففي مقدمتها جمع الآيات المتعلقة بالموضوع، وتحليلها، واستنباط مدلولها، وأهدافها ونسبت ما اعتمدت عليه إلى مصادره التفسيرية الأصيلة .

*وكذا جملة من الأحاديث النبوية التي تخدم الفكرة وتبرز مضمونها.

*ونماذج تطبيقية من تعامل النبي ﷺ لإرساء قواعد النهوض وقيام الحضارات الإنسانية، والتحذير من المخاطر التي تقوض النهضات، وتعصف بالحضارات.

*بالإضافة إلى القراءة الخاطفة في تاريخ الأمة بالقدر الذي يبرز الفكرة ويؤصلها .

*وكذا الإفادة مما قدمه علماء العقيدة ورجالات الفكر والمعنيون بالدراسات الإنسانية.

*وما يدعم دراستي من كتب اللغة والدراسات من غير إفراط في التحليلات والشروح؛ حرصا على عدم خروج البحث عن هدفه.

*كما اجتهدت – حسب طبيعة الدراسة، وقدر طاقتي ووسعي –. في الربط بين محاور الدراسة من خلال العناوين المتصلة بالفكرة ذاتها بما يسلمنا في النهاية إلى النتائج و الأهداف التي ترومها الدراسة.

خطة الدراسة

وقد تكونت الخطة من مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة.

المقدمة وتشتمل على:

* أهمية الموضوع . * مشكلة البحث وتساؤلاته .

*وأسباب اختياره. *ومنهج الدراسة. *وخطة البحث.

المبحث الأول: في تحديد المفاهيم واشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم التنوع الفكري وعلاقته بالوحدة.

المطلب الثاني: مفهوم النهضة في المنظور الإسلامي ومقارنته بالمفهوم الغربي.

المبحث الثاني: التنوع الفكري في القرآن الكريم وبعض المواقف التطبيقية في السنة وتاريخ الأمة، وقد اشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التنوع الفكري حقيقة قرآنية وسنة كونية.

المطلب الثاني: الوحدة في السنة النبوية.

المطلب الثالث: ضوابط التنوع في السنة وتاريخ الأمة:

المبحث الثالث: التنوع الفكري بين الخصوصية والعالمية واشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : التحديات الخارجية .

المطلب الثاني : التحديات الداخلية .

المبحث الرابع: أثر التنوع الفكري في بناء النهضة.

وقد اشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: سمات التنوع الإسلامي.

المطلب الثاني: إيجابيات التنوع الإسلامي.

المطلب الثالث: نماذج من التنوع المحمود في تاريخ الأمة.

المبحث الخامس: التنوع المذموم ومخاطره على مشاريع النهضة.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات

فهرس المراجع والمصادر

فهرس الموضوعات

والله المستعان ،،،،،،،،،،،،،

المبحث الأول : تحديد المفاهيم

المطلب الأول : التنوع الفكري

مفهومه -علاقته بالوحدة:

تقابلنا في بداية طرحنا لهذا الموضوع إشكالية كبرى تتعلق بالمفاهيم من جهتين :

أولاهما: الالتباس الظاهري بين الثنائية أو التناقض الظاهري في هذه الصورة (العالم الإسلامي الواحد/ الأنماط الثقافية المتعددة).

وثانيتهما: الخلط بين مفهوم النهضة في الاستعمال الغربي وبين مفهومها في المنظور الإسلامي وهو ما يفرض علينا ضرورة البيان والتحديد لها.

والخروج من هذا اللبس، وتفادى الوقوع في هذا الخلط _كما أشرنا_ أحد أهداف هذه الورقة لذا نقدم هذا البيان والتوضيح ولو بصورة موجزة والمقارنة بينهما في هذا المصطلح.

إن تأصيل المفاهيم المستعملة في مجال الفكر الإسلامي المعاصر يستلزم الرجوع إلى المعنى اللغوي والقرآني؛ ذلك لأن الاستخدامات الشائعة في الفكر المعاصر لا تسلم من التأثر بالفكر الغربي الذي له ظروفه الثقافية الخاصة به التي أنتجت المفاهيم والمعاني والأفكار المرتبطة بتطوره الحضاري ومذاهبه الفكرية.

مقصودنا بالتنوع الفكري:

إن المعنى المتبادر للذهن لغويا لعبارة التنوع الفكري هو: تنوع الثقافة واختلافها من جماعة إلى أخرى متزامنة . كما تشير هذه العبارة إلى اتسام الثقافة البشرية عموما بسمة التنوع أي كونها تتباين وتختلف كما تتشابه و تتطابق مضمونا و شكلا على نحو يجعلها تتمايز إلى أنواع، وبهذا المعنى اللغوي تكون عبارة التنوع الثقافي وصفا للواقع الثقافي البشري منظورا إليه من زاوية التباين أو الاختلاف والتشابه أو التطابق على المستوى الجمعي

في نفس الزمن.

أما على المستوى الاصطلاحي فان التنوع الثقافي يرمز إلى مفهوم ظهر مؤخرا و ما زال في طور التشكل و التكون، ويستنتج من الأدبيات ذات الصلة أن هذا المفهوم، بشكل عام، يتمحور حول التأكيد على إيجابية التنوع الثقافي وأهمية استمراره وعلى حق مختلف (أنواع) الثقافات في حفظ كيانها واحترام أوجه اختلافها وتميزها وحماية صناعاتها(الثقافية) وضرورة تقنين هذا الحق دوليا.(١)

إن التنوع هو تعدد الرؤى والأشكال والأنماط التعبيرية، وهذا بحد ذاته إغناء للمعرفة وإخصاب لها وتعديد لروافدها.

فالثقافة العربية التي ننتمي إليها من أبرز مظاهرها وأهم مميزاتها أنها ثقافة واحدة من جهة اللغة التي هي العربية التي جاء بها الإسلام ودُوّن بها القرآن الكريم، ولكنها ثقافة زاخرة بإبداعات الدول العربية، ومتنوعة بالأشكال والألوان والأصوات والتشكيلات، وإنه لتنوّعٌ خصب في إطار الوحدة، إذ إن لكل بلد أنماطه الثقافية، وأسلوبه ومشافهاته وتراثه الخصوصي، وكل ذلك روافدُ تصب في نهر الثقافة العربية الواحدة.

ولهذا فالتنوع الثقافي، هو أحد مظاهر قوة هذه الأمة في الإطار العربي القومي الذي يُظل أقواما وأمما لها خصوصيات ذاتية في النطاق الوطني. لكن هذه الخصوصيات المحدودة إذا ما جمعناها وراكمناها إلى بعضها البعض تقدم صورة مشرقة ومتعددة الأبعاد لهذه الثقافة.

ولعله بفضل هذا التنوع، والقدرة الهائلة على الانفتاح على الآخر، اكتسبت الثقافة العربية الإسلامية مميزاتها الحالية وإنسانيتها، بمعنى أنه

(١) "إدارة التنوع الثقافي: من الحفاظ إلى التزكية «ورقة عمل أعدتها لجنة من مؤسسة المنصور الثقافية للحوار بين الحضارات وقدمتها لندوة» التنوع الثقافي والحداثة: حوار بين الأقاليم" نظمتها اليونسكو في باريس في ٦-٢٠٠٤/٥/٧.

أصبح لهذه الثقافة خصائصُ ومُثلٌ وقيمٌ وآفاقٌ إنسانيةٌ متفردةٌ، تجري فيها مجرى العناصر المكونة لها. فالأخوّة والعدل والمساواة والسلام والحرية والتسامح والتكافل واحترام العقل وكرامة الإنسان والتفكير في الكون، ورفض الظلم والعدوان الخ... هي بديهيات في ذاتيتنا الثقافية وتراثنا الروحي والفكري.

لذلك لا يمكن تصور تنوع ثقافي على معنى العداوة، وعلى معنى المواجهة والكراهية والتحارب، إنما الحقيقة أن التنوع الثقافي هو إغناء للثقافات، وتعزيز لقدراتها، وإكسابها أبعادا إنسانية، وإطلاق العنان لآفاقها الإبداعية.

فأساس التنوع الإسلامي ومنطلقاته إذن هو «تنوع في إطار الوحدة» وهو القانون الذي عنون به الدكتور /محمد عماره كتابا [1] أفرده لبيان قضية التعددية والتنوع في الإسلام حيث قال: (إن التعددية – الموزونة بميزانها – لابد وأن تكون تميزا لفرقاء يجمعهم جامع الإسلام، وتنوعا لمذاهب وتيارات تظللها مرجعية التصور الإسلامي الجامع، وخصوصيات متعددة في إطار ثوابت الوحدة الإسلامية، «وجامع الإسلام» هذا لا يقف عند دائرة الاعتقاد الديني الإسلامي وحدها، فيكون مانعا لغير المسلمين من الوجود المتميز في إطاره، وإنما هو شامل لدوائر الحضارة والثقافة ومنظومة القيم الإيمانية التي تجمع غير المسلمين في هذه الدوائر المتعددة والمترامية الآفاق لجامع الإسلام «الأمر الذي يجعل هذه التعددية: نموا وتنمية للخصوصيات، مع احتفاظ كل فرقائها، وأطراف الخصوصيات، وأفراد التنوع» بالروح الإسلامية، والمزاج الإسلامي، وتواصل الفروع مع أصل الشجرة الطيبة

(١) أسماه "الإسلام والتعددية الاختلاف والتنوع في إطار الوحدة ص ٧طبعة دار الرشاد القاهرة الطبعة الاولى١٤١٨-١٩٩٧م

لكلمة الإسلام، التي هي بلاغ الله إلى رسولهﷺ وبيان هذا الرسول إلى العالمين!..

من هذا المنظار «وبهذا المنهاج » يكون طريق النظر الإسلامي إلى قضية التعددية «فيراها قانون التنوع الإسلامي في إطار الوحدة الإسلامية ».

وبذلك يرتفع الالتباس عن هذه الثنائية أو التناقض الظاهري (العالم الإسلامي الواحد/ الأنماط الثقافية المتعددة)،وربما تعزز السطور المتعلقة ببيان التنوع في القرآن رفع هذا الالتباس كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

إذن فالمعيار الثقافي والحضاري للأمة يجعل آفاقها دائمة الاتساع لاستيعاب من يشاركونها هذا المعيار، الأمر الذي يجعل وحدتها ميدانا للتنوع والتعددية، حتى لك أنما نحن بإزاء عملة واحدة ذات وجهين: الوحدة القائمة على مرونة التعابير. والتنوع القائم في إطار الوحدة.[١]

إن التنوع الفكري يتضمن الإقرار بأن (أحداً لا يحق له نفي أحد) و (ضمان حرية التفكير والتعبير المذهبي للجميع) و(المساواة في ظل سيادة القانون) [٢].

والتنوع الفكري في إطار الدين الواحد، يعنى وجود تنوع في الانتماء المذهبي في مجتمع واحد أو دولة تضم مجتمعاً أو أكثر، واحترام هذا التنوع ،وقبول ما يترتب عليه من اختلاف أو خلاف في الفروع أو غيرها ،بالإضافة إلى إيجاد صيغ ملائمة للتعبير عن ذلك في إطار مناسب، وبشكل يحول دون نشوب صراعات مذهبية تهدد سلامة المجتمع. وفى

(١) الإسلام والتعددية ص ١٤٥.

(٢) الفقه – كتاب الجهاد– السيد محمد الشيرازي الطبعة الثانية سنة ١٤٠٩ هـ – دار العلوم بيروت – ج٤٨، ص٢٩. ، وانظر "السبيل إلى إنهاض المسلمين" للشيرازي أيضا الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م، دار المنهل، بيروت، ص٤٦٦.

المقابل _ومن خلال التاريخ والوقائع الفكرية _ فإن إقصاء المخالف أو رفض التنوع والتعدد للآراء في المجتمع الواحد أو فرض الآراء قسرا لا يحقق تعايشا ولا يبني أمة ولا يقيم نهضة .

ويشير إلى هذه الحقيقة الكاتب والمفكر المغربي(عبد الإله بلقزيز) بقوله: إن المواطنية إذا كانت جامعاً سياسياً يستوي أمامه الجميع، فإنها لا تكتسب مضمونها الكامل إلا متى اعترفت للمواطنين بحق حيازة ملكيتهم الرمزية، أي جملة العناصر والعوامل التي تصنع شخصيتهم الدينية والثقافية واللغوية على النحو الذي يساهم في إنتاج الاستقرار الاجتماعي والسياسي من خلال إعادة إنتاج الاجتماع الوطني الموحد.

والتحدي الأكبر الذي يواجه المجتمعات العربية المعاصرة، هو (كما يرى بلقزيز): تحقيق معادلة اجتماعية جديدة تقوم على توليد دينامية [١] لربط المواطنين بولاء مشترك للوطن والدولة، وصيانة ثوابت الأمة، دون إكراه وتسلط شمولي، وتوليد دينامية موازية لتحرير الولاء الرمزي للناس من الحجر دون الانزلاق إلى فئوية عصبوية أو إلى التشريع للفتنة [٢].

من هنا نستطيع القول: إن النواة الأولى لتحقيق مشاريع النهضة العربية والإسلامية، هي تعميق جميع القيم والمبادئ الإنسانية والحضارية، وفسح المجال لجميع المؤسسات، والأطر التي تأخذ على عاتقها نشر قيم احترام التعدد والتنوع، ونسبية الحقيقة والتسامح. لأنه في مثل هذه الأجواء، تتبلور

(١) تعنى الطاقة أو القوة المتجددة يقال: " هذا الرَّجل يتّصف بديناميّةٍ لا مثيلَ لها "فهو مصطلح يشير إلي الشيء المتميز بطاقة وفاعلية لا نظير لها، ويبحث في القوة المحركة طبيعية كانت أو أخلاقية أو فكرية(انظر دينامية وتوليد الشكل المعماري في الطراز المعماري رسالة ماجستير للباحثة /بيداء حاتم سليمان العبودي سنة ٢٠٠٤ بجامعة بغداد .

(٢) عبد الإله بلقزيز، العنف والديمقراطية، ص٨٤.٨٥، منشورات جريدة الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٩م.

قيم الوحدة الحقيقية وسبلها الحضارية. وبدون هذا العمل سيبقى شعار النهضة، أو الوحدة شعاراً أجوفَ، يثير خوف الآخرين، ويزيد من هواجسهم الأمنية والسياسية، ما لم يتحول هذا الشعار إلى حقائق ووقائع تملأ الديار والأوطان.

المطلب الثاني

مفهوم النهضة في الثقافة العربية وعلاقته بالمفهوم الغربي

لكي يتسنى توضيح المقصود بـ«النهضة» في مفاهيم هذه الدراسة، أقوم ببيان مفهومها في الثقافة العربية، ومقارنته بمفهومها في الثقافة الغربية حتى لا يختلط مقصدنا بالمفهوم الغربي للنهضة _ كما أشرنا.... ففي معجم لسان العرب: نَهَضَ يَنْهَضُ نَهْضًا ونُهُضًا، وانْتَهَضَ، أيْ قام.. وأَنْهَضَهُ حركه للنهوض. واسْتَنْهَضْتُهُ لأمر كذا إذا أمرته بالنهوض له، ونَاهَضْتُهُ أي قاومتهُ.. ونَهَضَ النبت إذا استوي.. والنَّهْضَةُ: الطاقة والقوة. وأَنْهَضَهُ بالشيء: قواه على النهوضِ[١]) وفي المعجم الوسيط: النهضة: الوثبة في سبيل التقدم الاجتماعي أو غيره، ويقال كان فلان نَهْضَةٌ إلى كذا: حَرَكةٌ.. والنَّهَّاض: الدءوب على أن يسلك سبيل التقدم.. والكثير النهوض[٢]،ومن خلال الدلالات السابقة يمكن تَلَمُس دلالات تساعد في بلورة المفهوم من حيث الآتي:

الهدف: النهضة وثبة في سبيل التقدم الاجتماعي.

(١) معجم لسان العرب. لابن منظور:(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) المجلد الرابع، ص٤٥٦٠.- تحقيق /عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي- دار المعارف- القاهرة- د. ت-

(٢) المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية تصدير د. إبراهيم بيومي مدكور، وإخراج: أحمد حسن الزيات وآخرون، جزآن في مجلد- جـ٢ ص ٩٥٩.ص - ط٢- ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م - القاهرة.

ب- الحالة الفكرية والوجدانية: ترتبط بالحركة والنشاط واليقظة والصحوة التي سبقها حالة غفلة وثبات ونوم، تسببت في فوات أمور مهمة تطلبت سرعة الاستنهاض والنهضة.

ج- ومن حيث البُعد الزماني والاجتماعي: ترتبط بالحاجات الضرورية والحياتية، مما يتطلب الإنهاض بالتعبئة الفكرية للمجتمع لتجاوز مرحلة السُبات والتأخُّر.

ولما كان القرآن الكريم هو المنهج والطريق الذي أخرج الله به الناس من ظلمات الجاهلية إلى أنوار الإسلام، وكان منطلق النهضة والتقدم الروحي والمادي في العالم الإسلامي، فإن بداية عصر النهضة تبدأ منذ هذه الانطلاقة، وبهذا تكون الدلالات اللغوية والمنهج المؤسس للنهضة هي الأسس التي يجب أن يفهم على ضوئها مفهوم النهضة المنشودة للعالم الإسلامي اليوم؛ لأن ذلك من مستلزمات تأصيل المفهوم.

والاستخدام الشائع لمفهوم «النهضة» في الفكر العربي المعاصر قد ألقى بظلاله على اللفظ العربي وأصابه بمعانٍ ودلالات محملة بالتجربة الحضارية الأوربية، فكثير من المفكرين العرب المعاصرين يقصدون بـ«النهضة» عصر النهضة في الفكر الأوربي[١]، في حين أن المفهومين: العربي والغربي يختلفان جذريًا على المستوى العقدي، والفكري والزمني. فقد تطور فكر النهضة في الثقافة الغربية بسبب الصراع بين العلماء التجريبيين ورجال الكنيسة على نحو أفرز ثلاثة عصور فكرية هي:

أ-**عصر النهضة:** كان قوامه في أوربا إحياء التراث اليوناني الروماني،

(١) انظر: د. محمد عابد الجابري: المشروع النهضوى العربي، ص٥٧- ط٢- ٢٠٠٠م- بيروت- مركز دراسات الوحدة العربية، و: راجع د. فادي إسماعيل: الخطاب العربي المعاصر، قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة- ص ١٩- ط٢- المعهد العالي للفكر الإسلامي- ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م -القاهرة.

والفلسفي العلمي، والأدبي، والانتظام فيه، الشيء الذي يعني الإفلات من هيمنة الكنيسة ووصايتها على العقل والوجدان، وهو ما عرف باسم علم النهضة الجديد، الذي نشأ كرد فعل في ثورة على كنيسة العصور الوسطى.[١] وشغلت القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وامتدت حتى القرن السابع عشر واتسمت بالروح العلمية، والاعتماد على المنهج التجريبي وانتشار ديانة العقل[٢].

ب- عصر التنوير: والخصائص الرئيسة للتنوير هي: إيمان الروح أو العقل بقدرته على التحرر من كل ما ورثه من عبودية فكرية وعلى تقرير مصيره، والشجاعة في إخضاع كل الآراء والمذاهب الموروثة لامتحان العقل وحكمه وتشكيل الدولة والمجتمع والاقتصاد، والقانون والدين والتربية بشكل جديد تبعًا لمبادئ وأسس قوية جديدة[٣]. وامتد هذا العصر من القرن السابع عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر[٤].

جـ- عصر الحداثة: وهو امتداد لعصر الأنوار، وقد تطورت الأنوار في القرن العشرين لتكون فلسفة المجتمعات الغربية وثقافتها من حوالي ١٨٥٠م إلى سنة ١٩٥٠م، أي الفترة المتفجرة التي حقق فيها مجتمع ما بعد الثورة والمجتمع البورجوازي إنجازات هائلة، تكنولوجية وفكرية، وشهد تحولاً

(١) انظر: جون هرمان رندال: تكوين العقل الحديث- ص ١٩٥ و٢٤١- ترجمة د. جورج طعيمة ومراجعة: برهان دجاني، وتقديم د. محمد حسين هيكل- ط٢- ١٩٦٥م- دار الثقافة العربية- بيروت.

(٢) انظر: د. توفيق الطويل: الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية ص ٢٢- ١٩٩٠م- دار التراث الإسلامي- القاهرة، وجون هرمان رندال: تكوين العقل الحديث ص ٤٣٣ وما بعدها.

(٣) انظر: د. عبد الرحمن بدوي: نيتشه- ص ١٢٨- الكويت- ١٩٣٩م.

(٤) انظر: كرين برينتون: تشكيل العقل الحديث ص ١١٤ وما بعدها- ترجمة: شوقي جلال- ٢٠٠٤م - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

حضاريًا كاملاً في ظروف المعيشة والعلاقات الاجتماعية [١].وتطور الفكر الحداثي المعاصر إلى «عدمية ما بعد الحداثة» وهي نزعة تقوم على النفي والإنكار في الفلسفة والأخلاق والسياسة، فتنكر أية حقيقة ثابتة على الإطلاق، وتذهب إلى أن القيم الأخلاقية مجرد وهم وخيال[٢]. هذا هو مفهوم النهضة وتطوره في الفكر الغربي إلى عدمية ما بعد الحداثة، وهو يختلف تماما عن المفهوم العربي الإسلامي كما رأينا.

(١) انظر: سان هاندن: فلسفة ما بعد الحداثة- ص ١٤٢- ضمن مجموعة أبحاث بعنوان: مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين- تحرير: أوليفر ليمان- ترجمة: مصطفى محمود محمد- عدد محرم ١٤٢٥هـ- مارس سنة ٢٠٠٤م -سلسلة عالم المعرفة. وزارة الثقافة- الكويت.

(٢) انظر: المعجم الفلسفي: مجمع اللغة العربية بالقاهرة ص ١١٨، وراجع: كرين برينتون: تشكيل العقل الحديث ص ٢٤٩ ود. عبد الوهاب المسيري: دراسات معرفية في الحداثة الغربية ص ١٣ وما بعدها وص ٧٩ وما بعدها- ط١- ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م- مكتبة الشروق الدولية.

المبحث الثاني

التنوع الفكري في القرآن والسنة وتاريخ الأمة

المطلب الأول

التنوع الفكري حقيقة قرآنية وسنة كونية

على الرغم من دعوة الإسلام لوحدة البشر وأخوتهم وأصلهم المشترك إذ لا يوجد دين دعا إلى الأخوة التي تتجسد في الاتحاد والتضامن، والتساند والتآلف، والتعاون والتكاتف، وحذر من التفرق والاختلاف والتعادي، مثل الإسلام في قرآنه وسنته، حيث يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [سورة آل عمران: ١٠٠. ١٠٧].

نقل الحافظ السيوطي في سبب نزول هذه الآيات جملة آثار عن بعض الصحابة والتابعين، أكثرها تفصيلا: ما أخرجه ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: مر شاس بن قيس . وكان شيخا قد عسا في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين

شديد الحسد لهم . على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من إلفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابا معه من يهود، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم ذكرهم يوم بعاث، وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب، أوس بن قيظي أحد بني حارثة من الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة، وغضب الفريقان جميعا، وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة . والظاهرة الحرة . فخرجوا إليها، وانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ أبعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم لهم، فألقوا السلاح، وبكوا، وعانق الرجال بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ، سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس، وأنزل الله في شأن شاس بن قيس، وما صنع: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ**﴾. إلى قوله: ﴿**وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ وأنزل في أوس بن قيظي وجبار بن صخر ومن كان معهما، من قومهما الذين صنعوا

ما صنعوا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [(١)].والآيات الكريمة دعوة قوية إلى توحيد الكلمة، واجتماع الصف المسلم على الإسلام

وقد أكد القرآن أن المسلمين . وإن اختلفت أجناسهم وألوانهم وأوطانهم ولغاتهم وطبقاتهم . أمة واحدة، وهم الأمة الوسط الذين جعلهم الله ﴿**شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ (سورة البقرة: ١٤٣) وهم كما وصفهم القرآن ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**﴾ [سورة آل عمران الآية: ١١٠].

وأعلن القرآن أن الأخوة الواشجة هي الرباط المقدس بين جماعة المسلمين وهي العنوان المعبر عن حقيقة الإيمان ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾(سورة الحجرات: ١٠).

وجاءت الآيات بعد هذه الآية تقيم سياجا من الآداب والفضائل الأخلاقية يحمي الأخوة مما يشوهها ويؤذيها، من السخرية، واللمز، والتنا بز بالألقاب، وسوء الظن، والتجسس، والغيبة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾ (سورة الحجرات: ١١،١٢).

---

(١) في « الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت: (٩١١هـ)تحقيق: مركز هجر للبحوث الناشر: دار هجر – مصر سنة [١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م]وانظر: جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠)تحقيق: مكتب التحقيق بدار هجر.الناشر: دار هجر.الطبعة: الأولى الجزء الثالث

وحذر القرآن من التفرق أيما تحذير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ**﴾ (سورة الأنعام: ٦٥).

فجعل تفريق الأمة شيعا، يذوق بعضها بأس بعض، من أنواع العقوبات القدرية التي ينزلها الله بالناس إذا انحرفوا عن طريقه، ولم يعتبروا بآياته، وقرنها القرآن بالرجم ينزل من فوقهم، كالذي نزل بقوم لوط، أو بالخسف يقع من تحت أرجلهم، كالذي وقع لقارون.

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ (سورة الأنعام: ١٥٩).

جاء عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في اليهود والنصارى الذين تفرقوا واختلفوا في دينهم.

وجاء عن غيره أنهم أهل البدع، وأهل الشبهات، وأهل الضلالة من هذه الأمة.

قال ابن كثير: والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد، لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه (وكانوا شيعا) أي فرقا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله تعالى، قد برأ رسول الله ﷺ، مما هم فيه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ (سورة الشورى: ١٣) [(١)].

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للإمام: أبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجى شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م ج ٧ ص ١٤٩.وانظر تفسير القرآن العظيم للإمام أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [٧٠٠ -٧٧٤ هـ]تحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ج ٢ ص ٣٧٧.

مظاهر التنوع في القرآن:

وعلى الرغم من دعوة القرآن تلك إلى الوحدة والتآلف إلا أنه قد أكد أيضا على أن الاختلاف وتنوع الفرق والمذاهب داخل الدين الإسلامي حقيقة نطقت بها آياته، فتكررت فيها **مادة «اختلف» وهي تدل على مدى اتساع مساحة الاختلاف وبالتالي التعددية.**

كما أن التنوع يشكل ظاهرة طبيعية، بل سمة ثابتة في جميع الأديان السماوية والوضعية،و**القرآن استبعد أن يكون الناس أمة واحدة ينتظمهم اتفاق ورأي واحد،وإنما هم مختلفون وبقدر ما حرص على تأكيد الوحدانية لله بقدر ما أبرز التعدديات فيما عداه** (١).

ولسنا ندعى هنا الإحاطة بكل ما جاء في القرآن من آيات تؤكد على حتمية التنوع والاختلاف بين الناس، وإنما الإشارة إلى بعضها تكفينا عن الكل.

ففي القوميات والأجناس تعددية وأن القرآن يعتبرها آية من آيات الله في الاجتماع الإنساني: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الروم: ٢٢].

وفي الشعوب والقبائل هناك تعددية تثمر التمايز الذي يدعو القرآن إلى توظيفه في إقامة علاقات التعارف بين الفرقاء المتمايزين ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣٠]

وفي الشرائع والمناهج ومن ثم في الحضارات هناك تعدديه يراها القرآن حافزا للتنافس في الخيرات.. وسببا في التدافع الذي يقوم ويرشد مسارات أمم الحضارات على سبيل التقدم والارتقاء فهي المصدر والباعث على حيوية

(١) انظر "التعددية في مجتمع إسلامي" تأليف جمال البنا ص١٠، ١١ دار الفكر الإسلامي

الإبداع والتجديد الذي لا سبيل إليه إذا غاب التمايز وطمست الخصوصيات بين الحضارات [١] يتضح ذلك في قوله تعالي ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ [هود: ١٨، ١٩].وعن هذا الاختلاف وذلك التنوع وتلك التعددية في الشرائع والمناهج باعتبارها علة للخلق يقول المفسرون: إن المعنى «وللاختلاف خلقهم». .فكأنما التعددية أوالتنوع علة للوجود[٢].

﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ [المائدة٤٨]

وفي إطار وحدة الدين وتعددية الشرائع جاء القرآن بتقرير هذه الحقيقة ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ (الشورى ١٣).

وهكذا كان منهج القرآن في إبراز مظاهر التنوع فبجانب دعوته لوحدة البشر وأخوتهم وأصلهم المشترك، إلا أنه لم يتغافل ظاهرة التنوع الإنساني واختلاف الناس، وعدّها مظهرا من مظاهر قدرة الله تعالي، وآية من آياته.

*كما بيّن أن شأن البشر في اختلافهم و تنوعهم شأن مظاهر الكون الأخرى قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ (فاطر: ٢٧ –٢٨).

والحق أن الاختلاف في وجهات النظر وتقدير الأشياء والحكم عليها

(١) الإسلام والتعددية الاختلاف والتنوع في إطار الوحدة للدكتور /محمد عمارة ص٧،٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٩ ص١١٤،١١٥ .

أمر فطري طبعي، ذو صلة أكيدة بالفروق الفردية بين الناس.

*كما أن الاختلاف – في المفهوم الإسلامي – حق طبعي وعام لكل الناس ، وهو حق أبدي وقائم إلى يوم القيامة، يوم يفصل الله سبحانه وتعالى بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون، و القرآن الكريم يؤكد هذا حين يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ (هود: ١١٨ –١١٩ ..)»

ويقول تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ (يونس: ١٩).. . ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ (المائدة: ٤٨) .. ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ (السجدة: ٢٥)

فواقع الحياة يدل على أن الصراع الدائر دوران الليل والنهار بين قوى الخير وقوى الشر لا سبيل إلى حسمه، و إلا تحولت المجموعة البشرية إلى أحد صنفين: إما ملائكة و إما شياطين. وتمام عملية التحول هذه هو نوع من الباطل محال، لأنه يلغي الحكمة من وجود الإنسان أصلا، ويبطل مفعول الحياة، و يفقدها مغزاها.

فسنة الله قائمة في اختلاف حظوظ الناس من الهداية والإيمان: ﴿**كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ (السجدة:١٣)

النصوص و العقول ذلك أن الله لما بعث الرسل، وأنزل معهم الشرائع لم يبين فيها إلا القواعد العامة التي يحتاجها الناس في حياتهم، و بعض التفاصيل الثانوية، و لم يشأ الله تعالى أن يحسم كل مظاهر الاختلاف البشري، بل بين بعض ما يختلف الناس فيه، وأعرض عن بعض، كما قال إن اختلاف الآراء وتباين المذاهب شيء لا يمكن تجاهله، و لا الفرار منه،

فتلك سنة الله في تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ**﴾ (الزخرف: ٦٣).. وقال تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ (النمل:٧٦).

لقد اقتضت حكمة العليم القدير أن تبقى مفاوز ظنية مفعمة بالاحتمال، يذهب الناس في تفسيرها كل مذهب، وتطلب القطع في هذه المساحات لون من تكلف المحال، وستبقى مساحة من النص الديني لا يمكن القطع بتف سيرها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ (آل عمران: ٧).

وإذن، سيبقى قدر من الأحكام الشرعية لا يتمكن كثير من الناس من التوصل إلي حكم جازم فيها.. قال الرسول صلى الله عليه و سلم: (الحلال بين، و الحرام بين، و بينهما متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس)[1].

فليس من الأمور الشاذة في طبيعة الناس أن يختلفوا في طريقة فهمهم لنص واحد قرءوه، و هذا هو ما حدث بالفعل للمسلمين، كما حدث مثله مع أتباع الديانات الأخرى، فالمسلمون متفقون على الكتاب الكريم، و لكنهم مختلفون في فهمهم لبعض آياته، و من هنا – مع تضافر عوامل أخرى –

(١) رواه البخاري١/٢٠ (الجامع الصحيح للإمام: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) الناشر: دار الشعب – القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ – ١٩٨٧). ومسلم ٥/٥٠(الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم للإمام : أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري الناشر: دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة . بيروت). و أبو داود ٣/٢٤٧ (سنن أبي داود المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الناشر: دار الكتاب العربي . بيروت و الترمذي٣/٥١١ (الجامع الصحيح سنن الترمذي للإمام: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون). وابن ماجه٥/١٢٣ (سنن ابن ماجة" أبو عبد الله محمد بن يزيد القز ويني(المتوفى: ٢٧٣هـ)كتب حواشيه: محمود خليل الناشر: مكتبة أبي المعا طي).

نشأت المذاهب المتعددة، وانضواء فرق و تيارات تحت لواء الإسلام – شأنه شأن العقائد الكبرى – ليس في حد ذاته يمثل خطرا كبيرا لا على الإسلام ولا على المسلمين، ولكن الخطورة تبزغ حينما تفتقد هذه الفرق والتيارات الأسس القويمة للتحاور فيما بينها.

إن التطرف المذهبي يتبدى في أن يأخذ الشخص بطريقة معينة في الفهم أو بمذهب معين، ثم يعلن أنه هو وحده الصحيح، و أن الآخرين على خطأ. ولو وقف الأمر عند هذا الحد، لما كان عليه غبار، لأن معنى أن يأخذ إنسان بمذهب معين دون سائر المذاهب، هو أنه قد رأى الصواب في جانب هذا المذهب الذي اختاره، لكنه ينقلب «متطرفا» إذا هو أراد أن يحمل الآخرين بالقوة – كائنة ما كانت صورة القوة – على مشاركته فيما اعتقد.

حرية الرأي والمعتقد:

إن القراءة الواعية لآيات القرآن الكريم، ونصوص السنة وتاريخ الأمة، تكشف عن منظومة من المفاهيم والتعاليم الدينية التي تؤكد على حرية الإنسان وحقه في الاختيار، وأنه يتحمل مسؤولية قراره واختياره أمام الله تعالى، وترفض الاستعباد والوصاية الفكرية على الناس. فالخالق سبحانه لم يفرض الإيمان به.

ولتقرير حرية الإنسان وتأصيل وجودها، تؤكد كثير من آيات القرآن الكريم، أن الله تعالى لم يشأ أن يفرض الإيمان به على خلقه بالإجبار والقوة، بل أودعهم عقولاً تقودهم نحوه، وفطرة ترشدهم إليه، وبعث لهم أنبياء يدعونهم إلى الإيمان به، ثم ترك للناس حرية الاختيار في هذه الحياة. يقول تعالى: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾ (الكهف:٢٩)

ويقول تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾(الإنسان:٣).

وتشير آيات أخرى في القرآن الكريم إلى أن الله تعالى جعل فرص

الحياة متساوية بين المؤمنين والكافرين، يقول تعالى: ﴿**كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ**﴾ (الإسراء:٢٠).

وإذا كان الله تعالى لم يفرض على عباده الإيمان به قسراً، لتكون الحياة دار اختيار واختبار، كما شاءت حكمته، فكيف يحق لأحد أن يمارس فرض الإيمان على الناس باسم الله ونيابة عنه؟.

إنه تعالى لا يريد الإيمان به عن طريق القوة والقسر، لأنه حينئذٍ لن يكون إيماناً حقيقياً، ولو أراد الله تعالى إخضاع الإنسان للإيمان قسراً لكان ذلك ميسوراً عليه. يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**﴾(يونس:٩٩).

وبسيف قاطع ورفض صريح يقول تعالى: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ (البقرة:٢٥٩)، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية، أنها نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي: ألا استكرههما؟ فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك. (١)

لو كان الاعتقاد بحقانية الرأي، والإخلاص للفكرة، مبرراً مقبولاً لفرضه على الآخرين، وممارسة الوصاية الفكرية، لما حظر الله تعالى ذلك على رسله وأنبيائه. فهم يحملون رسالة الله للناس، وهي حق لا ريب فيه، ولا يمكن أن يزايد عليهم أحد في الإخلاص للحق والاجتهاد في نصرته، ولكن الله تعالى لم يأذن لهم بفرض دعوتهم على الناس قسراً، ولم يسمح لأحد من أنبيائه ورسله أن يمارس الوصاية والهيمنة على اتجاهات الناس واختياراتهم.

(١) أنظر الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي كر بن فرح الأنصاري الخزرجى شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)تحقيق: أحمد البر دوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م وانظر (الميزان في تفسير القرآن) للسيد محمد حسين الطباطبائي:، ج٢ ص٣٥١، الطبعة الأولى ١٩٩١م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

حيث ينص القرآن الكريم على أن وظيفة رسل الله تنحصر في حدود إبلاغ الرسالة، لا فرضها بالقوة، يقول تعالى: ﴿**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ**﴾ سورة النحل آية (٣٥)، وقد تكررت هذه العبارة في آيات القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة، كقوله تعالى: ﴿**فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ**﴾ (سورة المائدة آية ٩٢)، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ**﴾ (سورة النور آية ٥٤). وتنص آيات أخرى في القرآن الكريم على أنه لا يحق للنبي أن يمارس أي وصاية أو هيمنة على أفكار الناس وآرائهم، يقول تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾ (سورة الغاشية آية ٢١-٢٢)

هذه هي نظرة القرآن إلى قضية التنوع ، أو هذا هو مدلول التنوع في القرآن وهو كما ترى مدلول يؤكد على أن التنوعرأمر طبعي بين أبناء المجتمع الواحد به يتعايشون، وبه ينهضون رغم اختلاف المعتقد ،**وما أجمل تعبير أبي حيان التوحيدي حين قال:«إن الناس – في أصل جبلتهم،وبدء خلقتهم –رقد افترقوا مجتمعين واجتمعوا مفترقين واختلفوا مؤتلفين وائتلفوا مختلفين»** [(١)].

ولهذا يطيب لنا أن نؤكد هنا على أن القرآن هو المنطلق الحقيقي للنهضة القائمة على الفكر المبنية على التنوع و الاختلاف الذي يساهم كل أطرافه في وضع لبنات المجتمع الناهض،لكن أبى بعض البشر – عن ظلم و جهل – إلا أن يجعلوا من مدلولات التنوع الذي هو آية من آيات الله و قدرته، أسبابا للعصبية، وأن يقيموا منه حدودا تفصل بينهم وبين غيرهم من البشر.

(١) انظر "المقابسات" لأبي حيان التوحيدي ص ٨٣ بتحقيق /محمد توفيق حسين ط دار الأدب.بيروت سنة ١٩٨٩م

المطلب الثاني

الوحدة في السنة النبوية

أما السنة النبوية فقد قررت وأكدت وفصلت ما جاء به القرآن الكريم من الدعوة إلى الاتحاد والائتلاف، والتحذير من التفرق والاختلاف. فقد دعت السنة إلى الجماعة والوحدة، ونفرت من الشذوذ والفرقة، دعت إلى الأخوة والمحبة، وزجرت عن العداوة والبغضاء. والأحاديث في هذا كثيرة وفيرة.. روى الترمذي عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بالجابية (اسم موضع) فقال: يا أيها الناس، إني قمت فيكم مقام رسول الله ﷺ فينا، فقال: أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.. عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة، فليلزم الجماعة.(١)

وروى عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «يد الله مع الجماعة».(٢)

وروي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يجمع أمتي . أو قال: أمة محمد ﷺ . على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ إلى النار»(٣).

وفي الصحيحين: «أن من فارق الجماعة شبرا فمات، فميتة جاهلية»(٤) . كما أكدت السنة الدعوة إلى الأخوة والوحدة بين المسلمين في مواقف كثيرة

(١) انظر الجامع الصحيح سنن الترمذي للإمام: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي.نشر دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون ج ٤ ص٤٦٥.

(٢) الترمذي ٤٦٦/٤ورواه ابن حبان في صحيحه بلفظ مقارب ٤٣٨/١٠.(صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان للإمام: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَدَ، التميمي، أبو حاتم، الدار مي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ) ترتيب: علي بن بلبان بن عبد الله، علاء الدين الفارسي، المنعوت بالأمير(المتوفى: ٧٣٩هـ) الناشر: مؤسسة الرسالة مصدر الكتاب: موقع مكتبة المدينة الرقمية).

(٣) الترمذي ج٤ ص٤٦٦

(٤) صحيح البخاري باب بدء الوحي ج٩ برقم ٧٨،٥٩،ومسلم في باب الأمر بلزوم الجماعة ٢١/٦.

وبأساليب شتى من أقوال النبي ﷺ حيث قال: «المسلم أخو المسلم، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته».[١] وقال:« والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم[٢] وقال: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم» [٣]

كما حذرت السنة النبوية أبلغ التحذير وأشده من التباغض والتهاجر، والتشاحن، وفساد ذات البين. فمن حديث أنس بن مالك عنه ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»[٤].

ومن حديث أبي هريرة: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا [٥]

ومن حديث أبي هريرة أيضا: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى ههنا» ويشير إلى صدره ثلاث مرات.. «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي ٢٨/٩ ومسلم في باب تحريم الظلم ١٨/٨

(٢) رواه مسلم ٥٣/١ ورواه ابوداوود٥١٦/٤ باب في إفشاء السلام (سنن أبي داود للإمام: أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الناشر: دار الكتاب العربي . بيروت).

(٣) رواه النسائي في سننه برقم ٤٧٤٦ ([سنن النسائي المعروف بالمجتبى من السنن للإمام: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب الطبعة الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة.

(٤) رواه البخاري في صحيحه ج ٤ ص٥،ج٧ص٢٤،ج٨ صفحات،١٨٥،٢٣،١٠ورواه مالك في موطأه (موطأ الإمام مالك للإمام: مالك بن أنس أبو عبدا لله الأصبحي الناشر: دار إحياء التراث العربي – مصر تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ج٢ ص ٩٠٧باب ماجاء في المهاجرة)

(٥) مسلم ١٠،٩،٨/٨ومالك في الموطأ ٢ /٩٠٧.

وعرضه [١]

ومن حديثه كذلك: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا، إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء (أي عداوة) فيقال: أنظروا (أي أخروا) هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا»[٢].

ومن حديث أبي الدرداء: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: صلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة ».

قال الترمذي: ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين[٣].(ومن حديث أبي هريرة: «إياكم وسوء ذات البين، فإنها الحالقة» [٤]. ومن حديث مولى الزبير عن الزبير: «دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذين نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا» [٥].. ومن حديث ابن عباس: «ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرا: رجل أمّ قوما وهم له كارهون، وامرأة

(١) رواه البخاري ج ٣ ص١٦٨،وسلم في صحيحه ج ٨ ص ١٠،١٨(الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم للإمام: أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري الناشر: دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة . بيروت

(٢) رواه مسلم في باب النهى عن الشحناء والتهاجر ١١/٨،وأحمد في مسنده ٤٦٥/٢،٤٦٨،٣٨٩،٤٠٠.

(٣) رواه الترمذي ٤٣٢/٤،٦٦٣،٦٦٤ واحمد في مسنده ١٦٤/١،١٦٧،ج٤٤٤/٦،وأبو داوود "باب في إصلاح ذات البين"٤٣٢/٤

(٤) الترمذي ٦٦٣/٤.

(٥) الترمذي ج٤ ص٦٦٤وابن ماجة في كتاب الزهد ج٥ ص٢٩٥، (سنن ابن ماجة للإمام: ابن ماجة أبي عبد الله محمد بن يزيد القز ويني(المتوفى: ٢٧٣هـ)كتب حواشيه: محمود خليل الناشر: مكتبة أبي المعاطي).

باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان» أي متقاطعان (١) ومن حديث أبي خراش الأسلمي: «من هجر أخاه سنة، فهو كسفك دمه»(٢).

ومن حديث جابر بن عبد الله: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»(٣).

المطلب الثالث

ضوابط التنوع من السنة وتاريخ الأمة

وهكذا أكدت هذه الروايات وكثير غيرها على الوحدة ونبذ الفرقة، وكما هو شان القرآن الكريم في الحث على الوحدة والربط بين المؤمنين برباط الجماعة في الوقت الذي لم يغفل فيه الحديث عن التنوع والتعدد والتأكيد على أنهما من علة الخلق ولوازم الاجتماع كان ذلك شان النبي ﷺ فقد أقر بالتعدد والتنوع، وفتح أمام أصحابه باب المشاركات بالآراء حين سمح لهم بالممارسات الفعلية الدالّة على قبوله للتنوع ،ونقلهم من مجرد الترديد لآراء الغير إلى رحابة الفكر، وكأنه عليه الصلاة و السلام كان يرسخ فيهم مقومات النهضة ويؤصل فيهم أسس البناء الحضاري، ويفتح أمامهم أبواب النهضة الفكرية والمجتمعية على مصاريعها، وباستحضار بعض تلك المشاهد يتجلى هذا المنهج النبوي الرشيد.

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه في كتاب إقامة الصلاة ١١٥/٢، وابن حبان في صحيحه ٥ /٥٣،وانظر مستخرج الطوسي:"باب من أمّ قوما وهم له كارهون"٢٧٠/٢(مختصر الأحكام[مستخرج الطوسي على جامع الترمذي] للإمام: أبي علي الحسن بن علي بن نصر الطوسي [٢٢٢هـ – ٣١٢هـ]تحقيق: أنيس بن أحمد الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ

(٢) رواه الحاكم في مستدركه في كتاب البر والصلة ١٨٠/٤،وأحمد في مسنده٢٢٠/٤،والبغوي في معجم الصحابة ٦٧/٢(معجم الصحابة للإمام: أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي المتوفى: ٣١٧ المحقق: محمد الأمين بن محمد الجكني الناشر: مكتبة دار البيان – الكويت)

(٣) الترمذى٣٣٠/٤واحمد في مسنده٣٨٤،٣٥٤/٤،وج ١٢٥/٤، (مسند الإمام أحمد بن حنبل أبو عبدا لله الشيباني) الناشر: مؤسسة قرطبة – القاهرة)

* فهاهو ﷺ يقول: «الأنبياء إخوة لعلاّت-(أي أمهات متعددات)- دينهم واحد وأمهاتهم شتى»[١] ، **وقول النبي ﷺ: «الأنبياء إخوة لعلاّت- (أي أمهات متعددات)- دينهم واحد وأمهاتهم شتى** ».بيان وتأكيد على تنوع الشرائع ووحدة الاعتقاد»

لذلك **مارس النبي عليه السلام التنوع عمليا في بداية نشأة المجتمع الإسلامي وتم التأكيد عليه رسميا بالصحيفة أو ما يسمى حديثا «بالدستور» الذي نظم العلاقات بين أفراد المجتمع الإسلامي حينذاك على تنوعه من مهاجرين وأنصار ويهود** ، وهاهي مواد ذلك الدستور الذي يعتبر ألمع الدساتير وأقدمها ، وآكدها في تأسيس العلاقة بين الفرقاء في المعتقد، القرناء في الوطن حيث تنص موادّه على :

«المؤمنون والمسلمون من قريش وأهل يثرب،ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس»

«وأن يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم»

«وأن يهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وأن على يهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم»

«وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مردَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله»

ووفقا لهذا الدستور كانت هناك «تعددية» في إطار « وحدة الأمة» الوليدة.. فالقبائل غدت لبنات متعددة تحدثت «صحيفة المدينة» عنها وعن أحلافها وحقوقها وواجباتها في إطار«وحدة الأمة» والمهاجرون

(١) رواه البخاري ط دار ابن كثير، اليمامة – بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ – ١٩٨٧ج٣/١٢٧٠تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة – جامعة دمشق،والإمام أحمد في مسنده٢/٤٠٦،٤٣٧.

والأنصار «جوامع فرعية» أشارت إليها «الصحيفة» في إطار الجامع الإسلامي الواحد،والتعددية الدينية بين جماعة المؤمنين وجماعة يهود تحدثت عنها «الصحيفة» ونظمت أطر تعدديتها في نطاق جامع ووحدة الرعية والأمة بالمعنى السياسي...[١].

حملت إلينا كتب السيرة أمثلة عديدة أرسى فيها النبي عليه السلام قواعد التنوع الفكري حيث قبِل آراء بعض أصحابه في المكان الملائم لمعركة بدر، _ كما هو مشهور_، وكذلك في غزوة الخندق التي شارك فيها الفكر الفارسي ممثلا في شخص سلمانر «رضي الله عنه» وغيرهما من غزواته ﷺ.

إن عماد التنوع الفكري وأساسه الأصيل هو الاجتهاد، ولا خلاف بين العلماء على أن الذي وضع أساسه هو رسول الله ﷺ ،فهو أول الداعين والحافزين لصحابته والفقهاء والقضاة على الاجتهاد، وتنمية ملكاتهم في استنباط الأحكام في قوله: «من اجتهد برأيه فأصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد»[٢] وكذا في حديثه المتفق عليه[٣] «حين أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن قاضيا ». ومن ثم انطلق المجتهدون من القضاة والفقهاء من أصحاب النبي ﷺ متأسِّين بمعاذ رضي الله عنه على النحو الذي أثمر تعددية في الأحكام المستنبطة من أصول ومبادئ وقواعد التشريع. ومنهم على بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وعمرو بن العاص، وزيد بن ثابت،

(١) انظر الإسلام والتعددية الاختلاف والتنوع في إطار الوحدة ص ١٠،١١ مرجع سابق بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري ١٣٣/٩ "بلفظ إذا اجتهد الحاكم"،والترمذى٦١٥/٣،والنسائي ٢٢٣/٨،وابن ماجة ٤١١/٣،وأبو داود ٣/ ٣٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في باب بدء الوحي١٣٣/٩ ط دار الشعب القاهرة سنة١٩٨٧ الترمذي ٦١٦،٦١٨/٣، وابوداود ٣٣٠/٣، واحمد ٢٤٢،٢٣٦/٥، والبيهقي١٣٧،١١٤/١٠ (السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي للإمام: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي مؤلف الجوهر النقي: علاء الدين علي بن عثمان المارد يني الشهير بابن التركماني المحقق: الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد الطبعة: الطبعة: الأولى . ١٣٤٤ هـ).

وعبد الله بن مسعود والعلاء بن الحضرمي، ومعقل بن يسار، وعقبة بن عامر، وحذيفة بن اليمان العبسي ،وأبو موسى الأشعري، ودحيه الكلبي، وأبيّ بن كعب....وغيرهم.[١]،وهكذا تأسس التنوع _منذ العهد النبوي _ على فريضة الجهاد.

***كما أن الصحابة _ رضوان الله عليهم _اختلفوا في مسائل فرعية كثيرة، وحتى على عهد الرسول** ﷺ، ولعل من أشهرها وأقواها دلالة على **التنوع فيرالآراء** قصة اختلاف الصحابة في تفسير أمره لهم بصلاة العصر في بني قريظة فيما رواهرابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَنَا لَمَّا رَجَعَ مِنَ الأَحْزَابِ:لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمُ الْعَصْرَ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ نُصَلِّي لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ)[٢]. **فأقّر** ﷺ **من صلى في بني** قريظة كما أقر من صلى في الطريق فتحا لباب الاجتهاد ،وتأكيدا على إرساء قواعد التنوع الفكري.

قال ابن بطال –رحمه الله–:«فأما الاجتهاد والاستنباط من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة فذلك هو الحق الواجب والفرض اللازم لأهل العلم، وبنحو هذا جاءت الأخبار عن النبي ﷺ[٣].

*كما لم يصادر رسول الله ﷺ خلاف الصحابة عندما طلب دواة وقرطاس ليكتب لهم كتابا لا يضلوا بعده حيث رفض عمر رضي الله عنه

(١) انظر "أقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم "لأبي عبد الله محمد بن فرج المالكي ص ٣٥،٢٣. تحقيق /د محمد ضياء الرحمن الأعظمي ط القاهرة سنة ١٩٧٨نقلا عن الإسلام والتعددية د /محمد عمارة ص٣١ بتصرف يسير.

(٢) رواه البخاري ٤٠٩/٧. (فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الناشر: دار المعرفة - بيروت).

(٣) في شرحه للصحيح ٣٥٢/١٠. (شرح صحيح البخاري . لابن بطال: أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي دار النشر: مكتبة الرشد – السعودية / الرياض – ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م الطبعة: الثانية تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم).

ومن معه، بينما علت أصوات الآخرين تطالب بكتابة الكتاب فكثر اللغط فقال عليه السلام: «قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع [١]»،وهنا نص صريح يؤكد على مشروعية التنوع المحمود، ورفض التنوع المذموم القائم على التنازع واللغط الذي يأتي في مقدمة مخاطره ضياع فرص التنمية والبناء للمجتمعات، لاسيما وأنها مرهونة بالوحدة واجتهاد الفرقاء لتحقيق آمالهم. ولقد فطن الإمام الخطابي إلى العلة من ترك الكتابة قائلا: «إنما ذهب عمر إلى أنه لو نص بما يزيل الخلاف لبطلت فضيلة العلماء وعدم الاجتهاد»[٢].

وقد قدم الإمام الشهرستاني لحديثه عن الملل والنحل في تاريخ الأمة الإسلامية بتتبع طائفة من الاختلافات التي وقعت حال حياته ﷺ،والتي وقعت بعد وفاته [٣]، وبعمق فكره وباهر عرضه أوقفنا على عدة أسس:

*منها أن التنوع والاختلاف في تاريخ الأمة مرتبط آخره بأوله ارتباط الثمرة بالشجرة والابن بأبيه من حيث الأصل والمنبع.

*ومنها أن الاختلاف منه ما كان في الأصول والعقائد _ولاشك أنه الممنوع _ومنها ما كان في الفروع والمستجدات وهو المحمود الذي أقره رسول الله ﷺ.

*ومنها أن الاختلاف الواقع بين الصحابة كان اجتهاديا غرضهم فيه إقامة مراسم الشرع، وإدامة مناهج الدين.

والذي كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يؤيده، ويحبذه لأنه

(١) رواه البخاري في " كتاب العلم"١٨٧/١."شرح ابن بطال"، وانظر الملل والنحل ج ١ص ١٢. (للإمام أبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ت (٥٤٨) تصحيح وتعليق الأستاذ أحمد فهمي محمد ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط الثانية١٤١٣/١٩٩٢).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٢٠٩/١،الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩.

(٣) الملل والنحل ج ١/ص ١٠ وما بعدها.

فتح باب السعة والمرونة بتعدد المشارب وتنوع المنازع [١].

كما اختلف الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ فيمن يخلفه، و في قتال مانعي الزكاة، و في بعض المسائل الفقهية. و كان بين عمر بن الخطاب و علي بن أبي طالب رضي الله عنهما اختلافات مشهورة، لكنها كانت تدور في نطاق أدب رفيع. كما اختلف عمر وعبد الله بن مسعود في كثير من المسائل، ذكر ابن القيم أنها بلغت مائة مسألة، و بالرغم من ذلك ما نقص حب أحدهما لصاحبه، و ما أضعف من تقدير و مودة أي منهما للآخر.

و حين وقعت الفتن الكبرى، ووقع السيف بين أصحاب رسول الله ﷺ، لم ينسوا أهل الفضل بينهم، ولا أنستهم الأحداث الجسام مناقب ذوي المناقب منهم. إذ سُئل عليا رضي الله عنه عن « أهل الجمل » أمشركون هم؟ فأجاب: من الشرك فروا، فسُئل: هل هم منافقون؟ فقال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا (أي أن هؤلاء يذكرون الله كثيرا). قيل فمن هم إذن؟ فقال: إخواننا بغوا علينا[٢].

وفي موقعة «صفّين»(٦٥٨/٣٧م) يقدم على -كرم الله وجهه- أروع نموذج للخلاف والتنوع المؤسس على قبول الآخر، واحترام رأيه حيث يقول: « لقد التقينا، وربنا واحد، ونبينا واحد، ودعوتنا في الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم في الإيمان بالله، والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا، والأمر واحد، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحن منه براء»[٣].

---

(١) أنظر من فقه الدولة في الإسلام – مكانتها-معالمها- طبيعتها موقفها من الديمقراطية والتعددية والمرأة وغير المسلمين ص ١٥٣، ١٥٤للدكتور/يوسف القرضاوي ط دار الشروق القاهرة ط الاولى١٩٩٧ م.

(٢) (ورد بسنن البيهقي ٨/ ١٨٢،١٧٣.) السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد الطبعة: الطبعة: الأولى . ١٣٤٤ هـ مصدر الكتاب: موقع وزارة الأوقاف المصرية وقد أشاروا إلى جمعية المكنز الإسلامي).

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٤١/١٧.بتحقيق /محمد أبو الفضل إبراهيم. ط القاهرة سنة =

ويصرح بأن الخلاف بينه وبين الخوارج كان دافعه التأويل لشبهة لم تخرج بأحد المتنازعين عن الإسلام فيقول: «إننا –والله– ما قاتلنا أهل الشام على ما توهم هؤلاء(الخوارج) من التكفير والافتراق في الدين، وما قاتلناهم إلا لنردهم إلى الجماعة، وإنهم لإخواننا في الدين، قبلتنا واحدة، ورأينا أننا على الحق دونهم » [١].

على أن من أدق النماذج في إبراز التنوع والخلاف البناء في تاريخ الأمة هو ما دار بين فرقائها في ثقيفة بني ساعده، وهو أعظم خلاف دار بين الأمة» إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان [٢] «فسريعا زال الخلاف وانتهض الفرقاء نحو الحفاظ على بناء الدولة التي تلفها صفوف أعدائها من كل جانب.

كما جسّد فقهاء المسلمين و أئمتهم الكبار، من أمثال: الحسن البصري، و أبي حنيفة النعمان، والأوزاعي، و سفيان الثوري، و الليث بن سعد، و مالك، و سفيان بن عيينة، و الشافعي، و أحمد بن حنبل.. وغيرهم أسس النهوض الثقافي والبناء الفكري حيث اختلفوا في كثير من الأمور الاجتهادية، وهم جميعا على الهدي مادام الاختلاف لم ينجم عن هوى أو رغبة في الشقاق، ولذلك كان أهل العلم في سائر الأمصار يقبلون فتاوى المفتين في المسائل الاجتهادية ماداموا مؤهلين، فيصوبون المصيب، و يستغفرون للمخطئ، و يحسنون الظن بالجميع..، و كثيرا ما كانوا يصدّرون اختياراتهم بنحو قولهم: «هذا أحوط»، أو «أحسن»، أو «نكره هذا»، بلا

=

١٩٥٩م

(١) انظر التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة ص ٢٣٨،٢٣٧ للإمام الباقلاني تحقيق /محمود محمد الخضيري ود محمد عبد الهادي أبو ريدة ط القاهرة ١٩٤٧م

(٢) الملل والنحل ١٣/١.

تضييق و لا اتهام و لا حجر على رأي، بل يسر و سهولة و انفتاح على الناس لتيسير أمورهم، وبهذا نهضت الأمة، واتسعت رقعتها، وقويت أمام أعدائها شوكتها، وانطلقت فعمّرت ونهضت فعلّمت على مرّ تاريخها.

المبحث الثالث

التنوع الإسلامي في مواجهة العالمية:

أشرنا عند بيان مفهوم التنوع في المنظور الإسلامي إلي أنه تنوع في إطار الوحدة، وهو أحد مظاهر قوة هذه الأمة في الإطار العربي القومي الذي يُظل أقواما وأمما لها خصوصيات ذاتية في النطاق الوطني ولعله بفضل هذا التنوع، اكتسبت الثقافة العربية الإسلامية مميزاتها الحالية وإنسانيتها، بمعنى أنه أصبح لهذه الثقافة خصائصُ ومُثلٌ وقيمٌ وآفاقٌ إنسانيةٌ متفردةٌ، تجري فيها مجرى العناصر المكونة لها. فالأخوّة والعدل والمساواة والسلام والحرية والتسامح وغيرها هي خصائص الثقافة الإسلامية.

وهنا نجد أنفسنا أمام نقطة جديرة بفحصها، وبيان الإجابة عما تطرحه من تساؤل يتطلّب إجابة ملحّة علي مائدة البحث حتى يتسنى لنا إبراز نتائجه، وبيان أثر هذا التنوع الإسلامي في بناء النهضة، هذا التساؤل هو«إلى أي مدى تلتقي الهوية الثقافية بخصائصها هذه مع المنظومة العالمية؟؟ أو نقول: هل مابين التنوع الفكري الإسلامي بمكوناته هذه مع دعوات «العالمية» وفاق أم شقاق؟؟ ،والسطور التالية تحمل معها الإجابة فنقول: تجابه الإسلام اليوم جملة من التحديات، جديدة ومختلفة عن كل الأشكال الأخرى التي عرضت له في تاريخه فهي تجعل العالم الإسلامي أمام اختبار عسير. ويبدو مستقبل العالم الإسلامي رهيناً بقدرته على الارتفاع عن مشكلاته الواقعية التي يتخبط فيها أو عدم قدرته على ذلك.

تلك التحديات تمثلها مجموعتان كبيرتان ، نستطيع إبرازهما في المطلبين التاليين :

المطلب الأول : التحديات الخارجية .

وهي التي تجابه الإسلام من خارجه (بمعنى أن الذين يطرحون تلك التحديات يوجدون خارج دائرة الإسلام – في الأغلب الأعم). وبالتالي فإن موقفهم موقف الاتهام، والمجاهرة بالعداء والقول بأن الإسلام يجب الاحتراز منه، في زمن تكون فيه الأهمية للثقافة، ويكون الفاعل المحرك في هذه الأخيرة هو الدين ويمثلها صامويل هانتنغتون في تقريره لنظرية «صراع الحضارات »[١]،ومجموعة ثانية من التحديات، وهي أشد ضراوة وقوة على العراك، وهي تلك التي تعترض الإسلام من داخله ومن بين أبنائه.

وبإطلالة سريعة على نمازج من التحديات الخارجية تطالعنا النصرانية واليهودية والشيوعية والعولمة والعلمانية والليبرالية وغيرها من الأسلحة التي تعمل على إقصاء الإسلام ومهاجمة ثقافته «ففي القرنين الأخيرين ومع بداية القرن الثامن عشر حينما دب الضعف في الكنيسة، وانحسرت سلطتها في المجتمعات الأوربية والأمريكية، وانهزمت في روسيا والصين لم تهدأ وتضع سلاحها وتسكن للأمر الواقع،وإنما رأت أن هذه فرصة مناسبة لها لتؤكد للمجتمعات الأوربية والأمريكية أنها الجدار القوي والستار الواقي الذي يقف حاجزا دون المسلمين، فهي تضع يدها مع كل فكرة استعمارية، ومع كل تآمر شيوعي أو صهيوني لإشهار السلاح بوجه المسلمين، وقد تواطأت الكنيسة مع الصهيونية ضد الإسلام في كل البلدان الأمريكية والأوربية، والإفريقية والآسيوية، مع أن اليهود هم الذين شوهوا معالم المسيحية وأساءوا إلى شخص المسيح عليه السلام» [٢]،وتتبع مؤامرات تلك المجموعة الحاقدة

(١) في كتابه (صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي للفيلسوف الاستراتيجي الأمريكي:صامويل هنتنجتون ترجمة: د مالك عبيد، د محمود خلف الناشر:الدار الجماهيرية: ليبيا– الطبعة الأولى ١٩٩٩عدد صفحات الكتاب: ٥٩٠ من القطع العادي).

(٢) انظر "أضواء على الثقافة الإسلامية للدكتورة/نادية شريف العمري ص١٦٠ ط مؤسسة الرسالة =

الحاسدة يطول بما يخرجنا عن الهدف الذي قصدناه كما أن خططها ووسائلها لاتخفي على أحد.ويكفينا إذا ما حاولنا استكناه الملامح العامة لصورة الإسلام في الوعي الثقافي في العالم الغربي الأوربي والأمريكي خاصة، أن نقرر أن تلك الصورة –طيلة العقود الثلاثة الماضية– تتسم إجمالاً بالضبابية والارتباك إذ إن غلالة سميكة من الأحكام القبلية، الدفينة والخاطئة معاً تحكمها، ويؤكد ماقررناه مدلول بعض الأحداث التي وقعت في الآونة الأخيرة ومنها:

* النتائج المترتبة على حرب أكتوبر ١٩٧٣ والارتفاع الكبير، والمفاجئ خاصة، الذي عرفته أسعار البترول وأثر ذلك على الاقتصاد الأمريكي – وبالتالي توجيه الوعي الأمريكي إلى مدى خطورة العالم الإسلامي على التأثير سلباً على دفة الولايات المتحدة الأمريكية.

*ومنها قيام الثورة الإسلامية في إيران واحتجاز الرهائن الأمريكيين في السفارة الأمريكية في طهران شهوراً عديدة – وغنيٌ عن البيان أن قنوات التلفزة كانت تعمق في الوعي الأمريكي، بما تملك من وسائل ومن تأثير الصورة والنقل المباشر، صورة للإسلام يكون بموجبها متصفاً بصفات العنف، والهمجية، والإعراض عن قيم الحرية واحترام حقوق الإنسان.

*ومنها ما عرف بأزمة الخليج الأولى (غزو الكويت من قبل صدام حسين، وما أعقب ذلك من الوجود العسكري في منطقة الخليج العربي عامة). ولسنا في حاجة إلى الحديث عن المخلفات البعيدة لواقعة «١١ سبتمبر» الفظيعة وتباري وسائل الإعلام الأمريكي في الربط بين الهجوم الذي كانت الولايات المتحدة الأمريكية ضحيته وبين الإسلام، وقد انتقلت

=

للطباعة والنشر والتوزيع لبنان ط التاسعة١٤١٩/١٩٩٨م

صورته في الوعي الأمريكي من الاقتران بالهمجية، والعنف، واحتقار حقوق الإنسانية، وقتل الحرية لتغدو صورة يصبح فيها الإسلام صنو الإرهاب الأعمى....وهكذا تأجج الشعور الغرب أمريكي بالخوف من الإسلام وتصاعد الإسلاميين إلى سدة الحكم منذ قيام ما يسمى بالربيع العربي ومن هنا تعمق الاهتمام بالإسلام في بؤرة الولايات المتحدة الأمريكية فسخرت كل ما تملكه من وسائل عملاقة (وخاصة الإعلام) في صناعة الرأي العام أو ما يسمى ب«تكييف الوعي الثقافي»[١]، ونشر ثقافة «الخوف من الإسلام»،وتعميق صورة للإسلام بالغة التشويه. إنهم بالتالي «خبراء الخوف الجدد»الذين كرسوا العداء الغرب أمريكي للإسلام. هذه صورة موجزة للعداء الخارجي الذي يواجهه الإسلام.

المطلب الثاني : التحديات الداخلية .

على أنه مهما يكن من شأن «خبراء الخوف الجدد»، ومهما يكن من شأن قوة «التكييف الثقافي» للفرد الغربي والأمريكي منه خاصة، بل ومهما يكن من الحنق الشديد والكراهية التي يعلنها للإسلام باحث سخّر معرفته الممتازة لتاريخ الإسلام وحضارته وهو «برنارد لويس »وأمثاله، ومهما يكن من موقف المساندة المطلقة لإسرائيل من قبل الولايات المتحدة الأمريكية[٢]، وبل مهما يكن من شأن التحديات الخارجية جميعها... فإن هذه الأخيرة لا

(١) انظر في مخططات اليهود [الخطر الصهيوني أو بروتوكولات حكماء صهيون ترجمة محمد خليفة التونسي،مكايد يهودية عبر التاريخ لعبد الرحمن الميداني ص٣٤٤،مؤامرة الصهيونية على العالم تأليف/أحمد عبد الغفور العطارص٧٦، المقالة الثالثة: "تحركات السياسة الأمريكية على أرض مصر" العدد ٧٣٥ القاهرة في ١٩٨٣/٢/١٤ من كتاب. الاستعمار والصهيونية وجمع المعلومات عن مصر تأليف: الأستاذ الدكتور حامد عبد الله ربيع [ضمن سلسلة نحو وعى سياسي واستراتيجي وتاريخي].

(٢) الأبعاد الفكرية والعلمية التقنيّة للصراع العربي الصهيوني للمؤلف: د.خلف محمد الجراد من منشورات اتحاد الكتّاب العرب– دمشق ٢٠٠٠.

تقارن في شيء بالتحديات الأخرى التي تعرض للإسلام من أهله، تلك التي ننعتها بالتحديات الداخلية. تتخذ هذه التحديات صوراً ومظاهر شتى، وترتبط بأسباب موضوعية (ارتفاع نسب الأمية في العالم الإسلامي، وارتفاع نسب البطالة، والفقر المدقع، ضعف المجتمع المدني، هيمنة دولة الاستبداد...)، ولكنها تقبل الإجمال، في حديث جامع، في عناوين بارزة ثلاثة تفعل، في مستوى الثقافة، فعلها الحاسم فتُسهم في خدمة الصورة النمطية التي ترتسم للإسلام في الوعي الثقافي الغربي وهي:

١- **الجهل:** القول في الدين عن جهل.نعم لا رهبانية في الإسلام ولكن الصحيح أيضاً، بل القاعدة الذهبية في المعرفة الإسلامية يقضي بأن الله لا يعبد بجهل. فالدين علم ومعرفة، وقواعد في الحياة ونبي الإسلام، صلوات الله عليه، يصف نفسه بالمعلم ويخبر أهل الإسلام بأن مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدماء الشهداء فتعلو كفة الأول وتطفو. والثمرة الأولى للجهل هذا هي الغلو، والغلو طريق الفساد بأشكاله المختلفة. الغلو يقوم بتهريب الهوية الثقافية الإسلامية فيقيدها ويسجنها خلف أسوار وقضبان من الأوهام والمخاوف ويقيم بينها وبين العالمية برزخا لا يمكن تجاوزه.

٢- **الجمود على القديم والعجز عن الاجتهاد الحق،** والاجتهاد الحق أو الاجتهاد في صورته العليا يعني القدرة على التجديد في الدين. و التجديد الديني والقدرة عليه هو السبيل الحق لتحقيق التوازن في معادلة طرفها الأول الهوية أو الخصوصية الثقافية، وطرفها الثاني هو العالمية.

٣ – **الاضطراب والتردد في الإقبال على الحداثة الحق** في معانيها التي لا تُحدث معارضة مع الإسلام، باعتباره وعياً ثقافياً عالياً، العقيدة والشريعة، قطب الرحى فيه وبؤرة ذلك الوعي ومداره. والعماد الأساسي للحداثة هو بناء الدولة الحديثة صدقاً، دولة الحق والقانون، تلك التي تكون قوية بقوة نظمها وقوة القوانين فيها – مثلما تكون قوية بقوة المجتمع المدني، الذي يمثل

الحارس الأمين لدولة القانون ويقابله في حراسة دولة الإسلام الحرص على مراعاة الهوية الثقافية الإسلامية وحفظها من الانغلاق من جانب، والحفاظ عليها من العبث والتبديد من جانب آخر [١].

إن رفع هذه التحديات جميعها (وخصوصا الداخلية وأساساً) هو الذي يقضي بالتزاوج والمواءمة السعيدة، والوفاق الدائم بين التنوع الثقافي في العالم الإسلامي مع الوعي بوحدة الانتساب إلى الهوية الثقافية المشتركة، وبين الانفتاح على الكونية والعالمية

ومن هنا يمكننا أن نقرر –وباطمئنان–أن الهوية الثقافية الإسلامية لا تقوم عائقاً في وجه دعوة «العالمية» بل إنها، على العكس من ذلك، تعمل على دعم تلك العالمية وتمكينها من أسباب الفعل وهي كذلك لأن الانفتاح على «الكونية» كان هو السمة الأساس التي ميزت الحضارة الإسلامية فأكسبتها الطابع الذي كان مميزاً لها في الوجود البشري.

كما أن الجمع بين الخصوصية الثقافية تلك وبين العالمية، يجسد دعوة الإسلام ذاته[٢]،وجماع ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء١٠٧] وأمر الله لنبيه بدعوة أهل الكتاب إلى الحوار الإيماني الدالِّ على قبول الآخر والتعايش معه رغم اختلاف المعتقد وذلك في قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾،وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ [الإسراء٧٠]وفي الوقوف على المعنى الحق للتكريم يكمن الجواب على

(١) انظر"التنوع الثقافي في العالم الإسلامي بين الخصوصية والعالمية مقال للدكتور /سعيد بن سعيد العلوي كلية الآداب الرباط

(٢) انظر في عالمية الإسلام (الدعوة الإسلامية دعوة عالمية صفحات،٥٦،١٤٢،١٨٩ و٤٨٩ للدكتور /محمد الراوي ط مكتبة العبيكان ط الأولى١٤١٥هـ/١٩٩٥م) .

السؤال الضمني الذي طرحته هذه النقطة الهامة من بحثنا حول إمكان الجمع بين الخصوصية (التنوع الثقافي مع وحدة الانتماء إلى الهوية الثقافية الإسلامية)،وبين العالمية الانتساب إلى العالم في شموله واتساع مداه، والانتماء إلى بني الإنسان وقد طوقه الله بالمسؤولية وشرفه بالتكريم وأمده بنعمة العقل وسلطان المعرفة.

لا تكمن مشكلات التعايش الحضاري إذن في مكونات التنوع الثقافي الإسلامي، وخصائصه، وإنما هي رهينة بقدرة أو عجز العالم الإسلامي على رفع التحديات الخارجية، والذاتية التي تقف أمامَه «حظوظُ العالمية»، في الوجود الإسلامي المعاصر، ورسم المستقبل الثقافي للعالم الإسلامي، للمساهمة الفاعلة في بناء المشاريع النهضوية.

المبحث الرابع

التنوع المحمود ودوره في بناء النهضة

بداية نؤكد وبيقين علي أن نهوض أمتنا سنة من السنن، لكن إعمال هذه السنن رهن بإقامتنا لأسبابها ومقدماتها فالقوانين – حتى ولو كانت وضعاً إلهياً – لا تعمل وحدها، وإنما لا بد لها من إرادة إنسانية، وفعل خلَّاق يضعها في الممارسة والتطبيق.

وبناء النهضة واستمرارها وبقاؤها مرهون – تاريخيا– بمدى فهم الأمة واستيعابها لما تتطلبه النهضة والوقوف على مقوماتها وأسسها وبذل الجهد في تحقيقها والاستمساك بها، فأي نهضة يريد أن يقوم بها أي رائد في أي جماعة لابد أن تكون في نطاق هذه النهضة العالمية التي كان صاحبها سيد رواد النهضات محمد ﷺ،ولاسيما أن المرجع الدائم التي تستمد هذه النهضة العالمية نجاحها منه –وأي نهضة تقوم في إطارها–هو الكتاب الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد، وأي تحرك للقيام الآن بأي نهضة –دون الرجوع إلى هذا المصدر الخالد الذي يجب الرجوع إليه في توجيه النهضات – **يعتبر كتحرك المشارك في معركة بغير سلاح، وكالساري في ظلام بغير مصباح.**

وهذا ما أكدته النصوص القرآنية والنبوية والتاريخية السابقة، وهنا نجد أنفسنا أمام ضرورة إبراز الهدف الأساسي من صياغة هذه الورقة وهو إبراز دور التنوع في بناء النهضة.

على الرغم مما حملته السطور الماضية من إشارات متكررة بدور التنوع في بناء النهضة وأهميته القصوى في تحقيق تماسكها واستمرارها إلا أن تساؤلا مازال يفرض نفسه –وبإلحاح–كيف يكون الخلاف الفكري عامل بناء للنهضة؟؟.

والحق أننا أمام انقسام حقيقي للفكر العربي اليوم كما انقسم بالأمس بين

عدة اتجاهات فكرية في النظر إلي الواقع الذي يفرض نفسه على عالمنا الإسلامي، وما يؤول إليه وقد توزعته اتجاهات ثلاثة:

أولها: فريق من المثقفين والمفكرين العرب يرى أنّ الخلاص العربي من الحالة البائسة الضعيفة التي يعيشها هو في القبول بما يحمله المشروع الأمريكي من الدعوة إلى الإصلاحات السياسية والاقت صادية والثقافية، مما ينقل العالم العربي والمنطقة إلى التفاعل الصحيح مع مقتضيات العولمة والانفتاح السياسي والاقتصادي.

وثانيها: فريق لا يتردد أن يلقي أعباء ما أصاب الأمة والشعوب العربية على الكاهل الأمريكي والصهيوني، معتبرا أنهما وراء كل الشرور التي أصابتنا وتصيبنا.

وثالثها: فريق الإصلاحيين والدعاة إلى الاعتماد على الذات «أو دعاة النهضة» وهو اتجاه «المراجعة الحضارية» الذي يشكل اليوم امتدادا للمدرسة الإصلاحية العربية، والتي كانت تدعو في لحظات المواجهة مع القوة الاستعمارية الغازية إلى بناء القوة الذاتية للأمة؛ لأنها هي القادرة على مواجهة الاستعمار، وإلى معالجة المشكلات الثقافية والاجتماعية التي تحول دون التطور الذاتي، كما كانت هذه المدرسة تسعى إلى النهضة التعليمية والفكرية والثقافية والاقتصادية، التي تصلح شأن الأمة وتقوي أجهزة المناعة فيها ضد الأمراض الذاتية التي تتيح الفرصة للمستعمر الغازي وللفساد الداخلي (كما سبق بيانه)، وكان تأكيد واهتمام هذه المدرسة ينصب على مواجهة التخلف والعمل على النهوض الحضاري.

ثم جاء مالك بن نبي فيما بعد وطوّر مفهوم «القابلية للاستعمار» [١]،

(١) انظر "شروط النهضة" ص٣٤ مالك بن نبي ترجمة عمر كامل مسقاوي ود عبد الصبور شاهين ط دار الفكر دمشق.

ووضع نظرية النهضة وشروطها في محاولة للفت الانتباه إلى أنّ المشكلة ليست سياسية، وإنما ثقافية حضارية، وأن مشاكل الأمة تُحَل عندما يتحرر الإنسان العربي من السلبية واللا فاعلية إلى العطاء والصناعة والإنتاج، واستأنس لنظريته بقول الكاتب الاجتماعي «بورك»:(إن الدولة التي لا تملك الوسائل لمسايرة التغيرات الاجتماعية لا تستطيع أن تحتفظ ببقائها).

وإذا كانت الدول العربية تعيش حالة من الاستبداد والقهر السياسي والتهميش الاقتصادي، فالحل لا يأتي من الخارج أو من الغرب أمريكي الذي يسعى خلف مصالحه على حساب مصالحنا، وإنما الحل في إزالة القابلية للاستبداد، وبناء المناعة ضده.

وننضم بهذه الورقة – وبقوة – إلى هذا الفريق لنؤكد على دور الثقافة في إزكاء جذوة النهوض والحركة ،وأنها تنبع من داخل الأمة المسلمة التي رسّخَت فيها تعاليمُ الوحي مفاهيم النهوض لتحقيق الخلافة في الأرض، والناظر بعين الوعي والإدراك يدرك أن التنوع ليس على إطلاقه محمودا كما أنه ليس على إطلاقه مذموما ،وهنا يلزمنا الإسراع بدراسة الحالتين معا لنبيِّن متى يكون التنوع بانيا؟ومتى يكون هادما؟؟ فنبدأ بإبراز دور التنوع المحمود في بناء النهضة، والله المستعان،،،

المطلب الأول

سمات التنوع الإسلامي

التنوع الثقافي بل التعدد في الأشكال التعبيرية الثقافية، هو الخاصية الواضحة المميزة للعالم الإسلامي في الماضي والحاضر، وهو الطابع العام الذي ميز الحضارة الإسلامية منذ فجر ظهورها الأول إلى مراحل تألقها وارتفاع نجمها، وهو الذي لازمها كذلك في مراحل الضعف والتقاعس التي شهدتها تلك الحضارة، بكيفيات شتى وفي مناطق متباعدة من العالم الإسلامي في المراحل الموسومة بعصر الانحطاط. كما أن هذا التعدد الثقافي هو ما نجده وصفاً صادقاً لدول وأقاليم العالم الإسلامي منذ الأزمنة الحديثة والتي يطلق عليها الدارسون نعوت «النهضة» و«اليقظة» و«البعث»، وما شابهها، وذلك بفضل ما انفردت به الثقافة الإسلامية من سمات ربانية **وقواعد علمية، وضوابط فكرية سار على دربها المثقفون فتحقق من ممارستهم لقواعد الفكر وضوابط الخلاف ما مكَّن للحضارة الإسلامية المكانة اللائقة في التعامل مع المشكلات وبناء النهضات، ويمكننا أن نسلط الضوء على بعض تلك السمات التي تضمن للتنوع المشاركة الفاعلة في بناء النهضة ومنها:**

بناء الذات ونقدها قبل تتبع مثالب الغير:

بهذا صرخ الشيخ «رشيد رضا» (رحمه الله)على صفحات «المنار»[١]في وجه المثقفين بأن ينتقلوا من نقد الحكومات الذي أصبح شغلهم الشاغل إلى المساهمة في بناء وعي الناس واستنهاض هممهم نحو البناء والنهضة. وهو ما عناه السيد يسين – المفكر المصري[٢] بدعوته إلى

(١) تفسير المنار ١٦/١للشيخ: محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ)الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٩٠ م

(٢) في محاضرة له بمؤسسة شومان الأردنية [٢٠٠٣/٧/٢٨] بعنوان " الحال العربي الراهن".

عملية نقد ذاتي حقيقية للذات تهدف إلى استنطاق مواطن الداء والخلل وأسبابها وصولا إلى علاجها والخلاص منها، هذه الدعوة إلى النقد تتجه أولا وأخيرا إلى الفاعل الحقيقي والمحرك الأصلي لعوامل البناء إنه «المثقف» العربي عموما والمصري على وجه الأخص لأداء دوره –وباقتدار– في عملية بناء الثقة والتحول النهضوى الحضاري؟.

على أن الدور المطلوب للمثقف الناهض يرتبط بالصدق والنقاء والإخلاص وتغليب الاعتبارات العامة على المصالح الخاصة ، وتتعلق بالنقطة السابقة قضية أساسية وهي أن يكون المثقف قدوة حقيقية يأتم به الشباب وتشهد له المجتمعات بالاستقامة والرشد، بمعنى آخر غياب حالة الفصام بين القول والسلوك العملي، كما أن هذا الدور يرتبط أيضا بالواقعية والمرحلية والابتعاد عن الفكر المعلب المنجز، وطرح الاجتهاد العقلي والعملي للمشكلات. وفوق هذا وذاك **وجود حوار ثقافي حقيقي بين المثقفين في المشكلات والحلول، ومنهج الخروج من حالة الانكسار الحضاري إلى النهضة والتنمية.**

•التفكير الجمعي بروح الفريق:

فالتنوع المفضي إلى البناء النهضوى هو الذي يتطلب من المثقفين جهودا خاصة حيث إن دور المثقف المنتمي المطلوب لا يأتي في سياقات المدح والنفاق والتزلف للحكومات، كما انه لا يقف عند حدود النقد والرفض لهذه السياسات، وإنما يجب أن يعمل على البنية الثقافية التحتية والمفاهيمية الحاكمة على تصورات وتصرفات الشعوب والمجتمعات العربية، وأن يتناول المستويات المختلفة من البناء النفسي للفرد إلى البناء الاجتماعي ذاته إلى البناء السياسي، واضعا مسألة النهضة والتنمية هدفا أساسيا يسعى الجميع إليه.

فالنهضة والتنمية المطلوبة إذن بحاجة إلى « نفرة عامة » تقوم على

وجود مجموعة من المثقفين المنتمين الذين يشكلون طبقة متجانسة تعمل بتنسيق على قراءة الحالة في كل قطر وبناء تصورات متخصصة للنهضة والتنمية، ولمواجهة المشكلات المتعددة، وهنا يأتي ما أشار إلى ضرورته وأهميته «السيد ياسين» –في محاضرته المذكورة– وهو التفكير الجمعي بروح الفريق الواحد، سواء من خلال مؤسسات أو منتديات أو أي شكل من أشكال التعاون والتنسيق التي تتم بين هذه الفئات من المثقفين.

•الاعتراف بالتنوع وإلغاء «الأنا».....

حقا، إن الإنسان ليس سوى إمكانات رقيقة كبخار شفاف، يستوجب وجوده دائما وسطا، هو عالم الآخرين. فمهما اعتقد « الأنا » أنه مساوٍ لنفسه موجودا بذاته، و مهما نفي « الآخر »، إلا أنه يظل مفتقرا إلى كل حقيقة، فالأنا في حاجة إلى الأنت، والوجود بالذات يستدعي ويستلزم وجود الآخر، ولا وعي بالذات إلا عبر الوعي بالآخر و من خلاله.

ويستنتج د /عمارة هذه الحقيقة المؤكدة وهى (أن الإيمان بالتنوع والتميز والاختلاف هو الحافز على الإبداع والتدافع في ميادين التقدم والعمران والارتقاء بينما الاعتقاد بوحدة النموذج الفكري والحضاري هو باب التقليد والتشبه، ومن ثمّ السكون، وذبول ملكات الإبداع المفضي إلى الموات«.. ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾(المائدة: ٤٨) لهذه الحكمة الإلهية البالغة جعل الله الناس مختلفين [١].

فالسعي إلى النهضة الحضارية والثقافية والاجتماعية يكون بإزاحة التخلف بعيدا عن الصراعات السياسية التناحرية الداخلية التي أفقدت الشعوب العربية كثيرا من طاقاتها [٢].

(١) انظر (الإسلام والتعددية ص ٢٧) د محمد عمارة.

(٢) انظر على سبيل المثال في الفكرة السابقة (الإصلاح الشامل أو المجازفة بالمصير)، لمحمد جابر الأنصاري، مجلة الاجتهاد، عدد ٥٥و٥٦، صيف وخريف ٢٠٠٢،ص٤٠.

•العودة إلى منهج الوسطية والاعتصام به:

إن سبيل الإقلاع الحضاري، والخروج من «المحنة الكبرى »التي تشل فاعلية الأمة، هو العودة إلى المنهاج الوسطي الذي جاء به الإسلام، وسلوك سبيل التغيير الذي حدده الإسلام. فالوسطية في علاقة حاضرنا بماضينا تعني التمييز بين « الثوابت » وبين «المتغيرات» والالتزام بالدين – الذي هو وضع إلهي ثابت –مع الاستفادة «بالفكر الديني»، دونما جمود مذهبي أو التزام باجتهادات السابقين للوقائع التي تجاوزها التطور وطواها الزمان. وهي وسطية تعني رفض غلو الحداثة الغربية، التي تقيم قطيعة معرفية مع كل الموروث، وأيضاً رفض غلو الجمود والتقليد الذي يجعل كل الموروث ثوابت، يضفي عليها قداسة المعلوم من الدين بالضرورة، والوسطية في علاقة «ذاتنا» الحضارية والثقافية «الآخر» الحضاري والثقافي، تعني التمييز في الفكر بين علوم المادة، التي تمثل حقائقها وقوانينها مشتركاً إنسانياً عاماً لكل البشرية – فعلينا أن نسعى إلى طلبها– وبين علوم العقائد والفلسفات والعلوم الاجتماعية والإنسانية والآداب والفنون والقيم والأخلاق.. ففي هذه المنظومات الثقافية تتمثل الخصوصيات التي تتمايز فيها وبها الأمم والحضارات، فلا الانغلاق مفيد – بل ولا هو ممكن – ولا التبعية والتقليد لكل النموذج الوافد مفيدان، بل إن كليهما – الانغلاق والتبعية – إنما يمثلان التقليد الذي يقتل روح الإبداع. فالانغلاق على تقليد الماضي يستهلك الذات، والتبعية بالتقليد للآخر تفقد الذات خصوصيتها وتميزها، وتحرمها من ضرورات وحوافز الخلق والتجديد والإبداع، فكلٌّ منهما عدو[١].

والوسطية في العلاقة بين «الجموع» الموحدة لأمتنا وبين «التنوع» في

(١) أسباب التخلف وسبل النهوض مقال للدكتور /محمد عمارة نشر في مجلة (المعرفة) عدد (٣٣) بتاريخ (ذو الحجة ١٤١٨هـ –أبريل ١٩٩٨م).

إطار هذه «الجوامع» هي المنهاج الذي يحقق وحدتنا في «العقيدة والشريعة والأمة والحضارة ودار الإسلام..» مع التنوع والاختلاف والتعددية في إطار كل جوامع من هذه الجوامع الخمسة، فمذاهب الفقه–على الفروع– تتنوع في إطار جامع، الشريعة الإلهية الواحدة، والشعوب والقبائل والقوميات الإسلامية تتنوع في إطار وحدة الأمة.. والعادات والأعراف تتمايز في إطار وحدة الحضارة الإسلامية، والأقطار والأقاليم تتمايز وتتعدد في إطار وحدة دار الإسلام. وهذه الوسطية تخرجنا من غلو المركزية القاتلة للتنوع. ومن غلو الخلاف والتشرذم المنافي لعوامل الوحدة [١].

•الاستفادة من التجارب النهضوية والمشاريع التنموية:

القصص القرآني زاخر بهذه السمة التي تلفت أنظار المسلم إلى ألوان النهضات التي حققها الأنبياء والرسل وفي آخر آية من سورة يوسف (عليه السلام) بعد بيان منهجه وشرح مشروعه التنموي في أمة أوشكت على الهلاك ختم الله السورة بما يؤكد على وجوب أخذ العبرة من نجاحات الآخرين قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (يوسف:١١١)،هكذا جمعت الآية –تقريبا– كل سمات التنوع التي امتازت بها حركة يوسف عليه السلام لتحقيق النهضة الاقتصادية، كما أنها تدعونا إلى التحول من النظرية إلى الواقع الفعلي وهو ما فطنت إليه بعض حركات النهضة –ومن عجب – أنهم ليسوا مسلمين نقصد التجربة الآسيوية، التي استطاعت أن تحقق ذاتها وتتميز في ميادين الإنتاج والتقدم الاقتصادي والصناعي، هذه التجربة التي اهتم بها عدد كبير من أبناء

(١) نفس المصدر.

اتجاه. «المراجعة الحضارية»[١].

وقد يكون أحد عناصر التشابه بين هذه التجربة وبين الواقع العربي الحالي هو أن تلك التجربة – اليابانية الخاصة – قد ولدت في ظروف سياسية وعسكرية في غاية السوء بعد الحرب العالمية الثانية وما تلاها من صراعات في تلك المنطقة، ورغم الهزيمة السياسية والعسكرية، فإنها استطاعت أن تنهض مرة أخرى وتتجاوز كل المشاكل والمعوقات، «وربما يوضح هذه المسألة النقاش الذي دار بين أحد الاستراتيجيين الأمريكان وبين عالم ياباني؛ إذ سأله الخبير الأمريكي عن السر في التقدم والنمو الياباني السريع بعد الحرب العالمية الثانية: فأجابه العالم الياباني: (بأننا عندما خسرنا معركتنا معكم في ميدان القتال حوّلناها إلى المصنع والمعمل)،ولعل النقاش السابق هو بيت القصيد لرؤية هذا الاتجاه، وإبراز دور المثقف المطلوب ،وقدرته على اختيار منهج وطريق النهضة المأمولة[٢].

(١) ومن النماذج الرائدة المشروع النهضوى الذي قدمه المفكر الاسلامى الكبير الأستاذ/أنور الجندي الذي قضي حياته كلها من أجله فجاءت موسوعاته العلمية ومؤلفاته الفكرية شاهدة على جهاده وكفاحه وقد تناولت مشروعه ذلك في دراسة خاصة بعنوان "قضية الأصالة والمعاصرة في فكر الأستاذ أنور الجندي بين النظرية والتطبيق " وتم قبوله ونشره في المؤتمر الدولي الذي عقد في كلية دار العلوم جامعة المنيا بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية بعنوان "مناهج التجديد في العلوم الإسلامية والعربية" في الفترة من٥-٧ مارس ٢٠٠٥ وطبع بمطبعة مصر للخدمات العلمية القاهرة ط الأولى ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م وبرقم إيداع٢٠٠٤/٢٢٢٣٩.

(٢) "الدولة السياسية والدولة الاقتصادية، كيف نستفيد من تجربة دول أسيا الشرقية"، وهو عبارة عن بحث قدمه الأستاذ (الفضل شلق) في مجلة الاجتهاد، (عدد ٥٥و٥٦، صيف وخريف ٢٠٠٢) مصدر سابق.

•التخلص من اليأس:

ومن سمات التنوع التخلص من اليأس الذي يقف دوما عقبَةَ كؤدٍ أمام النهوض:

فإذا كان «اليأس» لا يمكن أن يقترن مع «الإيمان»، لأنه ﴿**لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [يوسف:٨٧]، فإن هذه المحنة الحضارية التي تأخذ بخناق أمتنا – على مرارتها – لا يجب ولا يمكن أن تبعث اليأس من التجدد والنهوض والإصلاح، فنحن أبناء حضارة ارتبطت بالإسلام الدين، بل لقد جاءت هذه الحضارة – كإبداع بشري – ثمرة لهذا الدين – الذي هو وضع إلهي –..... فالعدل قادم والنهوض آت لا ريب فيه.. يؤكد ذلك ويزكيه – أيضاً– إفلاس وتراجع صيغ وأيديولوجيات وفلسفات النهوض والتقدم غير الإسلامية، التي وإن حققت –أحياناً– قوة «الفرعونية» ووفرة «القار ونية»، فلقد عجزت عن تحقيق التوازن، الذي هو سر سعادة الإنسان. لكن.. فارق بين الإيمان بعودة أمتنا إلى النهوض.. بل وإلى إعادة الدنيا،وبين اعتبار ذلك «حتمية» من الحتميات.. فلقد غدت الحتميات – حتى عند الذين قالوا بها – حديث خرافة من الخرافات، فنهوض أمتنا سنة من السنن. لكن إعمال هذه السنن رهن بإقامتنا لأسبابها ومقدماتها، فالقوانين – حتى ولو كانت وضعاً إلهياً – لا تعمل وحدها، وإنما لا بد لها من إرادة إنسانية، وعمل إيجابي خلاق يضعها في الممارسة والتطبيق(١).

(١) أسباب التخلف وسبل النهوض " مصدر سابق".

المطلب الثاني

إيجابيات التنوع الفكري

وحتى يكون التنوع عامل تأسيس و بناء فإنه بالضرورة لابد أن يكون إيجابيا، وأهم ما ينسب إلى التنوع الثقافي من إيجابيات:

١- التنوع الثقافي مصدر خصب لإثراء الثقافة البشرية. فكما أن ثقافات الأفراد يثريها أكثر التواصل مع الثقافات الفردية المغايرة لها – وليس المتطابقة معها – فان ثقافة أي جماعة يثريها أكثر التواصل ليس مع ثقافات جماعية متطابقة و إنما مع ثقافات جماعية مغايرة لها و هو ما لا يتحقق إلا في ظل التنوع الثقافي.

٢- قد يكون التنوع الثقافي مُهِمًّا للحفاظ على التنوع البيولوجي، فقد رصد البعض علاقة ما بين زوال بعض الأنواع البيولوجية وزوال ثقافات معينة، وإذا ترجَّح ضرورة توافر حد أدنى من التنوع/ التعدد البيولوجي للحفاظ على استمرارية الحياة على كوكبنا هذا فقد يلزم أيضا توافر حد أدني من التنوع الثقافي للإبقاء على زخم التفاعل الثقافي اللّازم للإنماء الثقافي.

٣- بالإضافة إلى الإيجابيات المتمثلة في فوائده العملية ينطوي التنوع الثقافي في حد ذاته على قيمة جمالية تلبِّي تطلع النفس البشرية السوية دائما إلى الجمال الذي تجده في التنوع، وهو ما يفسّر لنا ما نلاحظه من نزوع الأفراد عموما إلى التنويع الثقافي، والذي يتجلى بوضوح أكثر في بعض جوانب أو عناصر الثقافة- بمعناها الأوسع- مثل الزى والمعمار.

٤- كيفما كان الخلاف المحتمل حول المحصلة النهائية لسلبياته وإيجابياته يبقى التنوع الثقافي يكتسب أهميته أساسا من كونه تعبيرا عن حرية الإنسان (و الجماعات) في الإبداع (الثقافي والفكري) ، وحقه في الاختلاف(الثقافي و الفكري)،وتجسيدا طبيعيا للتباين البنيوي والتكويني للأفراد[١].

(١) انظر محاضرة "إدارة التنوع الثقافي: من الحفاظ إلى التزكية " مرجع سابق.

٥- أنه يفتح باب الرحمة والسعة والمرونة: وإلى ذلك يشير الدكتور /القرضاوي – فيؤكد على أن اختلاف الألسنة والألوان آية من آيات الله تعالى في خلقه يعقلها العالمون منهم مستشهدا بما سبق ذكره من آيات[١]، وبأن الصحابة اختلفوا في مسائل فروعية كثيرة وحتى على عهد الرسول ﷺ، وأنه أقرهم على ذلك، كما أكد في كثير من كتبه على أن التنوع رحمة بالأمة لأنه فتح باب السعة والمرونة بتعدد المشارب وتنوع المنازع. فالاختلاف ليس كله شر وهو اختلاف تنوع وهو مما يثري الحياة ويدفعها للأمام وهذا محمود، فالتقدم لا يعنى بالضرورة التفرق، واستشهد بفهم عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) حين أيّد وحبّذ اختلاف الصحابة لأن في اختلاف الصحابة سعة ورحمة فيقول: ما يسرني أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنهم لو لم يختلفوا لم يكن لنا رخصة. يعني أنهم باختلافهم أتاحوا لنا فرصة الاختيار من أقوالهم واجتهاداتهم، كما أنهم سنوا لنا سنة الاختلاف في القضايا الاجتهادية، وظلوا معها أخوة متحابين[٢].

المطلب الثالث

نماذج من التنوع المحمود في تاريخ الأمة

بهذه الصورة المتكاملة للتنوع الثقافي الجامعة لهذه السمات وتلك الايجابيات تجسدت الثقافة التي أوحى بها الشعور والإيمان والرغبة في بناء حضارة الإسلام، واندفع لتحقيق ذلك بناءون من كل مجتمع مسلم، ومن كل طائفة إسلامية، فتخلوا جميعا عن كل قومية ولغة، إلا قومية الإسلام ولغة القرآن، فالبلخي نسي بلخيته، والفارسي نسي فارستيه، والبخاري نسي أنه من بخا ري، والعربي نسي عروبته وجعلوا أنفسهم في خدمة الإسلام ولغة

(١) سبق ذكر الآيات والأحاديث في ذلك تفصيلا في المبحث الثاني.

(٢) أنظر من فقه الدولة في الإسلام – مكانتها–معالمها– طبيعتها موقفها من الديمقراطية والتعددية والمرأة وغير المسلمين ص ١٥٣، ١٥٤.

الإسلام، وصنعوا ثقافة إسلامية منفتحة على ثقافات يونانية وفارسية وهندية، التزموا فيها نهجا صبغوه بصبغة الإسلام، وسخروه في خدمة فكرة الإسلام ليكون ثقافة إسلامية بامتياز. أوجدوا كنزا ثمينا من تفسير إلى أدب وفن، ومن علوم إسلامية إلى نبوغ في الفقه والفكر والفلسفة، ومن طب إلى كيمياء وهندسة وفلك وحساب ومعمار، ازدهرت هذه العلوم بالوحدة الثقافية دون تنسيق أو إشراف منظمات أو هيئات، فكانت ثقافة إسلامية عامة مشتركة لكل المسلمين لا تمييز فيها لشعب دون شعب ولا لطائفة دون طائفة تعلق بها كل قطر لأنه ساهم فيها وأنتجها وحفظ كرامتها،

وفي إمكان الباحث أن يجد لذلك التنوع الثقافي نماذج قوية من هؤلاء المثقفين تؤكد على أنهم صنّاع الحضارة وبناة النهضات في المراحل الكبرى التي عرفتها الحضارة الإسلامية: في فجر التأسيس الأول، و في مرحلة العطاء الأندلسي، ثم في الفترة الموسومة بالانكماش والتراجع، وأخيراً في الأزمنة المعاصرة. كما يستطيع الباحث – من خلال الدراسة المتأنية لوقائع التاريخ –أن يجد الإجابة الشافية على سؤال دائما يقرع كل أبواب النهضات على طول تاريخنا الإسلامي مؤداه كيف استطاع هؤلاء الذين احتدم بينهم الخلاف واستعرت بينهم المعارك الفكرية في كل الميادين –تقريبا–بالإضافة إلى تلك الفروق الاجتماعية والاتجاهات الدينية بينهم أن يشيدوا نهضات مترامية الأطراف في كل بلد دخلوها وفي كل حصون فتحوها؟؟.وإليك بعض المشاهد التي تحمل معها الجواب.

١–من مشاهد فجر الإسلام:

أما في فجر التأسيس الأول فقد رأينا كيف صاغ النبي ﷺ في المدينة أمة جمعت بين قوة الالتزام بتعاليم الوحي ونصوصه وبين إعمال العقل والإيمان بدوره في رسم معالم الحياة إذا لم يكن النص وحديث معاذ (رضي الله عنه) ، وموقف الصحابة في تفسير أمر النبي عليه السلام لهم بصلاة

العصر في بني قريظة، وتقريره لصنيع الفريقين خير شاهد على قوة وأصالة البناء القائم على الفكر، واحترام العقل المرحب بالخلاف.

كما كان وجود مجتمعي مكة والمدينة مع وجود الفارق بينهما في اللهجة والأسلوب والعادات والتقاليد ومع ذلك ضرب أبناء المدينتين مكة والمدينة أروع الأمثلة في التوحد والتلاحم الذي أوجد أمة ملكت الجزيرة العربية كلها وفتحت الحصون ونشرت العدل وبنت الحضارة.

الوحدة الإسلامية لا تعني أن تتطابق المجتمعات الإسلامية، ولا تختلف عن بعضها في كثير أو قليل، ولم يكن الأمر كذلك مع من قامت على أكتافهم دولة فلم يكن المهاجرون والأنصار متفقين في كل شيء، بل وجد الفرق بين اللهجتين المكية والمدنية، وبين الأسلوبين اللغويين: المكي والمدني، وما يراه الدارسون للسيرة النبوية من الاتحاد الكلي فيما بين المجتمعين المكي والمدني، والمدنيتين: المكية والمدنية، ليس من الصحة في شيء، فإن الدراسة الحديثة للسيرة النبوية تقرر أن اختلافاً واضحاً كان يوجد بين المدنيتين، وكان أهل مكة – ولا سيما قريشاً – يحملون الشعور الزائد بالتفوق، يدل على ذلك ما دار بين القرشيين الثلاثة وبين الأنصار، في غزوة بدر الكبرى، حين قالوا للأنصار الذين خرجوا لمبارزتهم «مالنا بكم من حاجة» ثم نادي مناديهم: «يامحمد أخرجوا إلينا أكفاءنا من قومنا» فلما برز لهم عبيدة وحمزة وعلي رضي الله عنهم بأمر النبي ﷺ قالوا: «نعم أكفاء كرام» مما يدل على نخوتهم القبلية وأنهم كانوا يعتزون بقبيلتهم وجنسهم، ولا يرون غيرهم أكفاءً لهم في قليل أو كثير. ولم تكن القضية قضية المهاجرين والأنصار فحسب بل كانت الأنصار تتوزعهما القبيلتان الكبيرتان: الأوس والخزرج اللتان كانت بينهما معارك وحروب في الماضي القريب، هذا بالإضافة إلى أن الحياة المكية كان عمادها التجارة، على حين كانت الحياة المدنية تتوقف على الزراعة، والفلاحة، والغرس والتشجير، كما كان هناك فرق بين الحياتين بالنسبة إلى المعاشرة العائلية والحياة الأسرية ،

كما أشار إلى ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إحدى المناسبات – ، ومع كل هذا، لا يعرف التاريخ أنه قامت أخوة من قبلُ أو وجدت آصرة في مثل هذا التنسيق والدقة والوضوح على مجرد أساس الوحدة في العقيدة والغاية، قامت هذه الأخوة فيما بين المؤمنين المخلصين الذين كانوا يتمتعون بالثبات على وحدة العقيدة ووحدة الهدف، وكان ذلك قوة جديدة أنشئت لإنقاذ العالم المنهار وتخليص الإنسانية من بؤسها وشقائها [١].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ**﴾... [يونس:٢] ربط الشيخ «رشيد رضا» بين النهضة العلمية والنقلة الحضارية التي قام بها المسلمون الأولون وبين انطلاقتهم من تعاليم القرآن برباط السبب بالمسبب والعلة بالمعلول حيث قال: قد كان توحيد المسلمين الأولين لله ومعرفتهم به وحبهم له وتوكلهم عليه هو الذي زكى أنفسهم، وأعلى هممهم، وكملهم بعزة النفس وشدة البأس، وإقامة الحق والعدل، ومكنهم من فتح البلاد وسياسة الأمم، وإعتاقها من رق الكهنة والأحبار والرهبان والبوذات، وحررهم من ظلم الملوك واستبدادهم، وإقامة دعائم الحضارة، وإحياء العلوم والفنون الميتة وترقيتها فيهم، وقد تم لهم من كل ذلك ما لم يقع مثله ولا ما يقاربه لأمة من أمم الأرض، حتى قال الدكتور /غوستاف لوبون المؤرخ الاجتماعي الشهير: إن ملكة الفنون لم يتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال، **أولها** جيل التقليد، **وثانيها** جيل الخضرمة، **وثالثها** جيل الاستقلال والاجتهاد – قال: إلا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الأول الذي بدءوا فيه بمزاولته وأقول: إن سبب ذلك تربية القرآن لهم على استقلال العقل والفكر واحتقار

(١) انظر بحث: الوحدة الثقافية وأثرها في ائتلاف الصف الإسلامي للدكتورة/ مريم آيت أحمد صفحات ١٨٣١٨٦،١٨٥ منشور ضمن " كتاب الأمة الوسط التنوع والاختلاف" من إصدارات الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين،و" الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية" الحرة ص ٤٢،٤٠ لأبى الحسن الندوي نشر: مؤسسة الرسالة .سنة: ١٤٠٢ – ١٩٨٢.

التقليد. وتوطين أنفسهم على إمامة البشر وقيادتها في أمور الدين والدنيا معا، وقد خفي كل هذا على سلائلها بعد ذهاب الخلافة الإسلامية وزوال النهضة العربية،وتحول السلطان إلى الأعاجم الذين لم يكن لهم من الإسلام إلا الظواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن [١].

ويقول: إن الأمم التي ارتقت بما أرشدها إليه تعاليم الوحي إنما ارتقت بطبيعة ذلك التعليم وتأثيره [٢].

ومنذ القرن الهجري أخذت الفروق الثقافية في الظهور بين المجتمعات الإسلامية الأولى، في دمشق والعراق، وفي مصر وإفريقية والمغرب. تتجلى تلك الفروق في كيفيات تنظيم المدينة الإسلامية وإدارة شؤونها. ذلك أن المعطيات الثقافية المحلية السابقة على الإسلام، في المجتمعات المذكورة، أخذت في الانتقال إلى هذه المنظومة الثقافية الجديدة التي حملها الإسلام، بل سرعان ما أخذت تغدو من مكوناتها. وبعبارة أخرى يلمس المؤرخ، منذ هذه الفترة المبكرة، فرقاً بيناً في طرائق تنظيم شؤون المدينة والعلاقات التي تقوم بين الأفراد والجماعات فيها وفي تلك الاختلافات لعبت التشكيلات البشرية دوراً حاسماً.

٢-الإسلام في المغرب العربي:

ويمدنا شيخ المؤرخين المغاربة في العصر الحديث العلامة «محمد المنوني» بنموذج التنوع الفكري والتفاعل الثقافي بين أهل المغرب العربي وبين الفاتحين المسلمين وأثر ذلك في بناء نهضتهم وذلك فيما نقله عنه الكاتب المغربي الدكتور سعيد بن سعيد العلوي حيث يقول:« إنه إذا كانت أسلمة إفريقية والمغرب قد تمت بصفة شاملة، تلقائية إلى حد كبير، في

(١) انظر" تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ١٧٣/١١. للشيخ: محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ) نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة: ١٩٩٠ م

(٢) تفسير المنار ١٣٨/١١.

غضون عقود قليلة فإنه من غير الصحيح أن نتحدث عن «تعريب» المجتمع في دينك البلدين بنفس الكيفية: فقد ظلت «الأمازيغية» فاعلة في الوجود الاجتماعي للمكونات البشرية الأصلية، مثلما أصبحت قناة جديدة لاستقبال الإسلام وإذاعته، لم يكن هذا في العقود الأولى من قدوم الإسلام إلى المغرب بل استمر ذلك قروناً أخرى بعد ذلك، وقد يلزم أن نذكر أن أمراء الدعوة في كل من الدولتين الكبيرتين اللتان حكمتا الغرب الإسلامي، وهما دولة المرابطين ودولة الموحدين، كانوا يجتهدون في نشر الدعوة الإسلامية المذهبية باللسان الأمازيغي. ولعل من المفيد أن ننبه إلى أن تراجمة المهدي بن تومرت، الزعيم المؤسس للدولة الموحدية، يصفونه بأنه «كان فصيحاً في اللسانين العربي والأمازيغي». ثم لعل من المفيد أن ننبه كذلك أن اللغة العربية ذاتها تدين بحفظها وانتشارها للعنصر الأمازيغي ولقرون عديدة ظل الطلبة في القرويين، وفي المدارس والجموع التي تمهد للدراسة فيها، يحفظون «الأجرومية» وهي المنظومة النحوية التي كتبها الفقيه الأمازيغي أجروم، والملاحظة نفسها تصدق على عدد كبير من المصنفات الفقهية، وعلى بعض المؤلفات في العقيدة وأخرى في التصوف كُتِب البعض منها في القرن السابع عشر، بل وبعده أيضاً ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أن مجموعة هائلة من النصوص المغربية في الفقه والعقيدة والتصوف حفظت، قروناً عديدة، في خزانات، توجد في مناطق سواد ساكنتها (بل مجموع الساكنة أحياناً) يتحدثون إحدى اللهجات الأمازيغية (تامكروت، أحنصال، تامصلحوت، العياشى...)[١].

(١) انظر كتابات "محمد المنوني" في الموضوع نذكر منها:
" حضارة وادي درعة من خلال النصوص و الآثار" مجلة دعوة الحق، العدد ٢، السنة السادسة أكتوبر ١٩٧٣ص: ١٣٢.
-العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص:٩٧-٩٩، ط:٢، مطبوعات دار المغرب للتأليف =

وهكذا لم يكن الأمر مغايراً في بلاد الشام أو الرافدين أو وادي النيل، ولا أنه كان غير ذلك في السنغال وتومبكتو وغيرها من البلاد الإفريقية، ولا أن الواقع كان مغايراً لذلك كله في الأندلس أو في بخارى وسمرقند وشيراز وقم، وكان شيئاً مخالفاً في بلاد البنغال وأفغانستان وفيما يدعى اليوم أندونسيا والباكستان وماليزيا. بل إن الحقيقة واحدة وهي أن الآثار الباطنة للمعطيات المحلية فعلت فعلها في تكون الحضارة الإسلامية وأكسبتها تنوعاً شديداً جعل التعابير الثقافية تكون مختلفة ومتعددة في المجتمعات والبلاد الإسلامية التي تكون هذه المجموعة الهائلة، مجموعة العالم الإسلامي.

٣- نموذج التنوع الفكري في الأندلس:

وهذا مشهد آخر من بلاد الأندلس فليس في وسع مؤرخ الفكر أن يفهم حركية الفكر الإسلامي في الأندلس طيلة القرون الثمانية التي استغرقها الوجود الإسلامي في قرطبة وغرناطة وأشبيلية وشقوبية والشاطبة، وباجة وغيرها من المدن والحواضر الأندلسية دون أن يأخذ بعين الاعتبار التركيب الإثني لبلاد الأندلس، ولا أن يقيم وزناً لطبيعة الوجود الاجتماعي الذي جعل التعايش ممكناً بين المسلمين وأهل الكتاب – بل وجعل من علماء غير مسلمين شراحاً للفكر الإسلامي الفلسفي ولنظريات العلماء المسلمين في الطب والفلك والزراعة، والحق أن الحضارة الإسلامية في الأندلس، من أي الجوانب نظرنا إليها، تقدم لنا مثالاً قوياً على التنوع الثقافي الذي يعرفه العالم الإسلامي – فقد كان المجتمع الإسلامي في الأندلس مجتمع تعدد وتسامح وتعايش بين النقائض أحياناً كثيرة. والحق أيضاً أن فكر رجال أمثال ابن حزم وابن باجة وابن رشد والشاطبي، من حيث قدرته على الأخذ بنظريات يكون من العسير التأليف بينها يقدم مادة ثرية للتأمل – مادة

=

والترجمة، الرباط:١٩٧٧م، وأيضا منها: معالم ثقافية في مراكش الموحدية. الطابع الخاص للحضارة المغربية في العصر الوسيط.

للتأمل في تلك الكيفية التي أمكن بها للتنوع الثقافي أن يكون عامل إخصاب وإثراء للهوية الإسلامية، وليس عاملاً يتهدد تلك الهوية أو يخدش في وحدتها [١].

وهكذا الحال في كثير من الدول التي ضمها الإسلام إلي حاضرته شرقا وغربا منذ فجر الإسلام، وحتى العصر الحديث يجد الباحث في الفكر والثقافة هذه الحقيقة ماثلة بين عينيه وهي وجود الثنائية الفكرية والاختيارات المذهبية المتناقضة بل المتناحرة المعادية أحيانا[السنة/الشيعة)،(النصيون /العقلانيون)]...الخ وبصحبتها تماما نهوض حضاري وتفوق ثقافي بصورة أعادت إلى أذهاننا التساؤل المطروح في أول هذا المبحث وهو كيف يكون التنوع والخلاف عامل نهضة؟؟ وهنا تصل بنا قراءة الواقع التاريخي الذي عرضنا جانبا منه كنماذج لتظهر لنا الإجابة عن هذا التساؤل في هذه النتيجة: «وهي أن التنوع الثقافي الشديد في البلاد والمجتمعات العديدة المختلفة التي تكوِّن العالم الإسلامي لم تكن لتُحدث تلك النهضات أو تساهم في بنائها لولا أن من ورائها «بنية عميقة» أو«عمادا ثقافيا مشتركا» أو «المكوِّن الأساسي» الذي يضمره الدين الإسلامي (عقيدة وشريعة وأخلاقا) كما غرسه رائد النهضات ﷺ بما جاء به من كتاب عظيم هو عماد كل نهضة ومرجعها إليه، كما تنطوي النتيجة أيضا على أن التنوع الثقافي لا يتعارض مع تلك الهوية الإسلامية الواحدة في شيء، بل إنه يسهم في تعميق الشعور بتلك الهوية ويؤكدها مثلما يكون عامل إثراء وإخصاب للفكر البنَّاء.

(١) انظر كتابات محمد المنوني السابقة،وأيضا بحث: الوحدة الثقافية وأثرها في ائتلاف الصف الإسلامي ص١٩٧،١٩٨ مرجع سا بق،وأيضا أسباب التخلف وسبل النهوض "مرجع سابق

المبحث الخامس

التنوع المذموم ومخاطره على النهضة

المباحث السابقة تجمعت أوراقها، وتضافرت أدلتها، وأكدت نماذجها فأثمرت تلك النتيجة الواضحة التي أجابت عن سؤال يشكك في قدرة التنوع والاختلاف علي بناء النهضة، فتأكد بما يطيح بهذه الشكوك دور التنوع المحمود في المساهمة الفاعلة في العملية النهضوية . والآن تتطلَّب هذه المرحلة من هذا البحث إبراز مخاطر التنوع المذموم على المشاريع النهضوية، كما بينت الصفحات السابقة دور التنوع المحمود في بناءها ، وربما تحمل السطور التالية كذلك مزيدا من الجواب الذي يبدد تلك الشكوك في قيمة التنوع وأهميته في النهضة.

ولا يتهيأ لباحث أن يقدم أدلة تسند قضيته ما لم يعتمد على المصدر الأساسي الدامغ لهذه النتيجة التي توصل إليها وهو نصوص الوحي (قرآنا وسنة)اللذان سبق الاعتماد عليهما في إقرار أهمية التنوع المحمود في بناء النهضة وضمانة استمرارها والحفاظ عليها.

وهنا نستحضر تلك التحذيرات التي قدمها القرآن للمسلمين (عموما)وإلى المتحاورين من أرباب الفكر الباحثين عن النهوض بالأمة الداعين إلى تآلفها واستعادة مكانتها (خصوصا).

ونكتفي أيضا بالإشارة حتى لا يطول بنا العرض في زاوية قد حازت مساحة معقولة فيما مضى لتأصيل القضية من ناحية ، ومن ناحية أخرى وضوح النتيجة واعتبارها من المسلمات بعد بذل الجهد – قدر طاقة الباحث وحسب القدر المسموح به لهذه الورقة – في عرض إثبات المقدمة بأدلتها النصية والعقلية. فنقول وبالله التوفيق: يؤكد لنا التاريخ أن التنوع في الفكر والثقافة هو المحرك الحقيقي للنهضة ما لم تكتنفه العقبات، وتتملكه عوامل الانحطاط، وساعتها يكون عامل هدم لا عامل بناء، ولقد أكَّد القرآن على

تلك المخاطر وحدد كثيرا منها مبينا أنها مُفْرِدَة أو مجتمعة تقف دوما حائلا دون البناء والازدهار وحذر من الوقوع في براثنها وفي مقدمتها – وأشدها ضراوة على الإطلاق:

التنازع والصدام

فالتنازع والصدام يفضي حتما إلى الفشل والتمزق وأقوى الأدلة على ذلك إضافة إلى ما سبق ذكره من سبب نزول قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**.....﴾ الآيات (سورة آل عمران: ١٠٠. ١٠٧)[١].

وفي قول الله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال:٤٦]

نهي صريح عن سلوك سبيل الفشل وأمر بالأناة عند احتدام الخلاف لتوقي القطيعة التي لا رابط يجمع بين فرقائها، والصراع الذي يلغي التعددية وينفيها فيذهب بالقوة ويفتح أبواب الهلاك

ولذلك أمر القرآن «بالتدافع» الذي يبني الحضارة لأنه يقوم على تحويل العداء إلى الالتقاء والخصومة إلى الموالاة قال تعالى: ﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم**﴾ [فصلت:٣٤].

كما بين أن التدافع هو السبيل الحافز الذي يدفع الحياة والعمران دوما إلي الارتقاء والتقدم وذلك في قوله تعالى: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾ [البقرة:٢٥١].

التنوع والاختلاف إذن يكون طبيعيا محمودا إذا كان في الفروع، بعيدا عن دائرة الأصول المتعلقة بالعقيدة والشريعة أما إذا أقحم المتنازعون أنفسهم

(١) راجع المبحث الثاني المطلب الأول "التنوع الفكري حقيقة قرآنية وسنة كونية" من هذا البحث.

داخلها فلن يتحقق لهم لقاء و سيصبح خلافهم تنازعا وحوارهم تنابذا يخرج بهم عن التنوع الباني إلى الخلاف الهادم [١]،

إذا كان الاختلاف في الفروع وبعض الأصول ضرورة، ورحمة وسعة ثروة . فما معنى ذم الاختلاف الذي ورد في النصوص الشرعية؟ والجواب أن التنوع المذموم هو:

١-ما كان سببه البغي واتباع الهوى، وهو الذي ذم الله به اليهود والنصارى من أهل الكتاب وغيرهم، الذين دفعهم حب الدنيا، وحب الذات إلى الاختلاف رغم قيام الحجة ووضوح المحجة، قال تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾[البقرة ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾ (آل عمران: ١٩) ، وقال: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [الجاثية: ١٦-١٧].

٢-الاختلاف الذي يؤدي إلى تفرق الكلمة وتعادي الأمة، وتنازع الطوائف، ويلبسها شيعا، ويذيق بعضها بأس بعض، هو ما حذر منه القرآن الكريم، والسنة المطهرة، أشد التحذير، وفي هذا السياق نفسه يحذر من التفرق كما تفرق الذين من قبلنا، فيصيبنا ما أصابهم قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ**

(١) انظر الإسلام والتعددية د محمد عمارة ص ٢٧،٢٨.

عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٠٥).وفي موقف آخر يقول: ﴿**وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ (الأنفال: ٤٦).

ويذم المشركين والمحرفين من أهل الكتاب الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا فيقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾ (الأنعام:١٥٩).

ويقول في سورة أخرى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾(الروم: ٣٠-٣٢) .[(١)].

وأما السنة فهي زاخرة بالمواقف التي حذر فيها النبيﷺ أصحابه من التنازع والخلاف –أقصد الخلاف المتجه إلى باب العقائد وأصول الشريعة – لعلم النبي ﷺأن هذا النوع من الخلاف هو باب الهلاك الذي لا يغلق، ومن أقوي الأمثلة على ذلك ما رواه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه **قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى أحمر وجهه حتى كأنما فقئ في وجنتيه حب الرمان، فقال: أبهذا أمرتم، أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم، عزمت عليكم أن لا تنازعوا فيه» [(٢)]. كما اشتد غضبه «عليه السلام »عندما أطلّت رؤوس الفتنة التي كادت أن تطيح بالأخوة، وتنزع**

(١) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف الممنوع والتفرق المذموم للدكتور القرضاوي ص٦٣،٦٤،٦٥ ط دار الشروق.

(٢) انظر "فيض القدير شرح الجامع الصغير" تأليف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرءوف بن تاج العارفين بن علي المناوي (المتوفى: ١٠٣١هـ)الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م ج ٣/ ص ٧، وانظر "مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح "تأليف: أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري (المتوفى: ١٤١٤هـ) الناشر: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند الطبعة: الثالثة – ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م

فتيل الصراع الدامي لإشعال نار الحروب التي لا تبقي بناءً ولا تذر عمرانا وذلك حين تواعد الأوس والخزرج على حرب دق طبولها اليهودي الغادر «شاس بن قيس» (١) **فالأخوة الإيمانية جزء لا ينفصم عن مكونات العقيدة وأصول الدين.**

الجمود والتقليد

الصراع الفكري بين أنصار جناحي – التقليد لماضينا، والجمود على تجارب الأسلاف،وبين المقلدين للغرب، العاملين على صب نهضتنا في قوالب الآخر الحضاري – (كما أشرنا إليه سلفاً) تخلَّق في واقعنا الفكري والثقافي والتربوي استقطابا حادا، أخذت صراعاته تستنزف جل طاقات الفريقين، الأمر الذي أعجزهما – كليهما – عن تحقيق المشروع النهضوى الذي يبشر به، لأن نزيف الصراع الحاد بينها جعلهما كلاعبي لعبة «شد الحبل» – التي لا غالب فيها ولا مغلوب – انتهت طاقات الفريقين فيها عند درجة الصفر!. أما التيار الوسطي الذي حاول تجنب غلو التقليد لتجارب ماضينا، وغلو التقليد للنموذج الغربي الوافد فلا يزال يعاني – مع عقبات الواقع ومشكلات النهوض – معارك ومناوشات واستنزاف الجامدين والمتغربين كليهما!.

إن الثقافة التي تختار الانغلاق، إنما تفوّت على نفسها فرصة التطور والنماء، فيكون حالها في هذا مشابها لحال القبيلة أو العائلة التي تفرض على أبنائها وبناتها الزواج من بعضهم البعض، بحيث يكون مصير هؤلاء الذين يتجرؤون على الزواج من خارج الجماعة الطرد أو العزل.

فقد دلت علوم الوراثة والطب على أن مثل هذه الجماعات والقبائل تعاني من تدهور مستمر في صفاتها الوراثية، لأن زواج الأقارب يؤدي إلي زيادة فرصة ظهور الصفات السلبية، بحيث إنه بينما يسير البشر نحو

(١) راجع قراءة المشهد في المبحث الثاني من هذا البحث.

الأمام، فإن هذه الجماعات والقبائل تتقهقر في اتجاه عكسي. ومثل هذا يكون حال الجماعات والأمم التي تنغلق على نفسها رافضة التعامل مع الآخرين.

حقا، إن الإنسان – كما عبّر أحد الباحثين – ليس سوى إمكانات رقيقة كبخار شفاف، يستوجب وجوده دائما وسطا، هو عالم الآخرين. فمهما اعتقد « الأنا » أنه مساوٍ لنفسه وجودا بذاته، و مهما نفي « الآخر »، إلا أنه يظل مفتقرا إلى كل حقيقة، فالأنا في حاجة إلى الأنت، والوجود بالذات يستدعي ويستلزم وجود الآخر، ولا وعي بالذات إلا عبر الوعي بالآخر و من خلاله

ولا يوجد دليل على فائدة التلاقح الثقافي، و قدرته على الإسهام في تقدم الشعوب والإنسانية جمعاء خيرا من الخبرة العربية الإسلامية إذ قام العرب بحمل لواء الإسلام و نشره بين شعوب العالم القديم في الأقاليم المحيطة بموطن الإسلام الأول في شبه الجزيرة العربية. و قد أتاح الدين الحنيف للعرب قوة إيمان وحماسة لم يعهدوها من قبل، حتى إنهم تغلبوا على إمبراطوريات وحضارات عريقة، و كان يمكن للمسلمين أن ينحوا نحو احتقار الحضارات التي انتصروا عليها، كما كان يمكن أن يذهب بهم الظن إلى أن آخر الرسالات السماوية تغنيهم عن التعلم من حضارات الشعوب الأخرى، غير أن أيا من هذا لم يحدث، و اختار المسلمون الانفتاح على ثقافات الشعوب الأخرى، و لم يستكبروا أن يتعلموا منها، و يأخذوا عنها كل ما تستطيع أن تقدمه وخاصة ما فيه نفع لهم[١] واليوم الذي دب فيه بينهم داء الصراع والتحزب وحب الغلبة والانتصار للرأي ألقوا ما بأيديهم من أسباب النهوض والتحضر كما كان ذلك دأبهم– كما رأينا– وتفرغوا للخلاف الذميم الذي أبعدهم عن ركب البناء والتنمية.

(١) أسباب التخلف وسبل النهوض د/محمد عمارة مرجع سابق.

نتائج البحث

توقفنا في هذه الورقة عند بعض تجليات التعددية في الإسلام من خلال بعض الآيات القرآنية،والأحاديث النبوية ومشاهد التاريخ الإسلامي، ويمكننا الخروج ببعض النتائج التالية:

أولها:- أن المنظور الإسلامي- خصوصا بمصدره الأساسي (القرآن والسنة) - يقر التعددية بكل صورها وألوانها،ويبين للمسلمين وغير المسلمين أن الحياة تتسع للموافق والمخالف * كما أقر الإسلام كذلك بأن الاختلاف حقيقة كونية وفريضة شرعية. فإذا وصلنا إلى هذه النتيجة أيقنا أن الذين يتحدثون عن زوال هذا الاختلاف أو نفي وجوده أصلا وعن اجتماع الناس على رأي واحد غير منصوص عليه بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة، وهو الذي يمثل ثوابت الإسلام وأركانه، كلامهم يحتاج إلى نظر حيث يصعب إثباته أو تطبيقه، وهو ما لم يحدث حتى في عهد أصحاب النبي ﷺ الذين اختلفوا والرسول بينهم يتنزل عليه الوحي، فالإنسان لا يمل من هذا الاختلاف سواء كان في أمور شرعية أو أمور حياتية صرفة، ما دام ذلك بعيدا عن التنازع المفضي إلى التفرقة والشقاق والبغضاء والبغي. بل من المهم أن يكون هذا الاختلاف منهج حياة يطبقه الزوج والزوجة في بيتهما مع أولادهما وتطبقه المؤسسات على اختلافها وتنوعها بداية من الأسرة، النواة الأولى لبناء المجتمع، وصولا إلى مؤسسة الدولة أو مجموعة الدول أو العالم بأسره، وذلك لتوطيد قيم الحوار والتسامح اللذان يعدان من أرقى الروابط السامية للاجتماع البشري.

ثانيها:- أن الحكمة من وراء التنوع هي تأكيد أهمية التلاقح بين الثقافات، و التعاون بين الناس، فلا تقتصر منافع التنوع على تعاون الدول، وإنما تمتد لتشمل أيضا العلاقات بين الجماعات الثقافية المختلفة سواء داخل الدولة الواحدة، أو عبر حدود الدول المختلفة، و لا توجد ثقافة أو

جماعة تستطيع أن تستغني عن مثل هذا التعاون، بدعوى أنها مكتفية بذاتها، و ليس لديها حاجة للاستفادة من تجارب وخبرات الآخرين، فالشعوب والثقافات يمكنها أن تكتسب مكانة متميزة في العالم بقدر ما يمكنها التفاعل الخلَّاق والاقتباس من الثقافات الأخرى..

ثالثها:- أن القراءة العامة تشير إلى أن الحالة الحضارية التي يمر بها عالمنا الإسلامي- بعامة - ومصرنا الغالية - بخاصة - متراجعة جدا،وفى كل مناحيها تقريبا وهو الأمر الذي يؤكد -وبإلحاح -على ضرورة وجود حوار ثقافي حقيقي بين المثقفين في المشكلات والحلول، ومنهج الخروج من حالة الانكسار الحضاري إلى النهضة والتنمية. فالنهضة والتنمية المطلوبة بحاجة إلى « نفرة عامة » تقوم على وجود مجموعة من المثقفين المخلصين الذين يشكلون طبقة متجانسة تعمل بتنسيق على قراءة الحالة في كل قطر وبناء تصورات متخصصة للنهضة والتنمية، ولمواجهة المشكلات المتعددة،وهنا لابد من التأكيد على أهمية المثقف ودوره الفاعل في محاولات الخروج من مآزقنا الحضارية وما يتطلبه دوره النهضوى والسمات التي يجب أن يتحلى بها ومنها:

أ-الخروج من سياقات المدح والنفاق والتزلف للحكومات.

ب-كما أنه لا يقف عند حدود النقد والرفض لهذه السياسات، وإنما يجب أن يعمل على البنية الثقافية التحتية والمفاهيمية الحاكمة على تصورات وتصرفات الشعوب والمجتمعات العربية، وأن يتناول المستويات المختلفة من البناء النفسي للفرد إلى البناء الاجتماعي ذاته إلى البناء السياسي، واضعا مسألة النهضة والتنمية هدفا أساسيا يسعى الجميع إليه.

ج- على أن الدور المطلوب للمثقف الرائد يرتبط بالصدق والنقاء والإخلاص وتغليب الاعتبارات العامة على المصالح الخاصة.

د- و تتعلق بالنقطة السابقة قضية أساسية وهي أن يكون المثقف قدوة

حقيقية يأتم به الشباب وتشهد له المجتمعات بالاستقامة والرشد، بمعنى آخر غياب حالة الفصام بين القول والسلوك العملي.

هـ – كما أن هذا الدور يرتبط أيضا بالواقعية والمرحلية والابتعاد عن الفكر المعلب المنجز، وطرح الاجتهاد العقلي والعملي للمشكلات.

٥– إننا نقف جميعا على أن هذا الإشكال المتعلق بالتنوع الثقافي والاختلاف الفكري إنما هو – في أساسه وفي جميع مستوياته – إشكال الحريات وإشكال حق الشعوب في تقرير مصيرها، وفي أن تنشئ فيما بينها – في إطار من الاحترام المتبادل – ضروبا من التضامن العضوي على مستوى المعمورة بأسرها.فما من ثقافة – مهما أوتيت من أسباب القوة وتقنيات الانتشار – يمكن لها أن تستأثر بالحق في الكونية، بل إن كل ثقافة يمكنها – ما تحررت من المحنّطات الوهمية – أن تكون ينبوع إبداع ومصدر ثراء لغيرها من الثقافات. تلك هي سبيل المستقبل، إنها سبيل التعاون والتفاهم، وهي سبيل التنوع الثقافي الخلاّق والاعتراف بالآخر..

●وخلاصة القول: إن التنوع بكل مستوياته، حالة طبيعية في كل الأمم والمجتمعات. ونحن في مجتمعاتنا الإسلامية والعربية لا نخرج عن هذا السياق، ففي مجتمعاتنا كل التنوع والتعدديات، ولا سبيل إلى نكرانها ومخاصمتها،وإن عجْزَنا عن إيجاد صيغة عادلة وموضوعية لإدارة هذه الحقيقة، هو المسئول عن كل التوترات والأزمات التي تحدث بين الفينة والأخرى بين مكونات وتعبيرات المجتمعات الإسلامية. وإن التيارات الإسلامية في بلادنا بكل تلاوينها وأطيافها، تتحمل مسئولية عظيمة في محاربة التعصب وجذور الغلو والوقوف بحزم ضد كل أشكال التمييز بين المواطنين وفي بناء مواطنة مبنية على انتماء متكافئ بين متطلبات الخصوصيات المذهبية وضرورات العيش والانتماء الوطني المشترك،ووحدها المواطنة بكل حمولتها الدستورية ومضمونها القانوني

والسياسي، هي جسر العبور إلى التحرر من كل العناوين الضيقة وبناء علاقة إيجابية وتواصلية بين كل التعبيرات والمكونات،وبناء النهضة المنشودة،،،،’،،،،

جاءت أوراق هذا البحث على عجل حاولت كتابتها –على قدر طاقتي،وبالقدر المسموع به في العرض– أن ألقى الضوء على قضية لا أحسب أنني أتيت عليها جميعا، لكنني ركزت على أهمها – من وجهة نظري– فالموضوع طويل، ويحتاج إلى كتابات ممتدة، وعميقة ومتأنية تقرب من تحديد معالم «قضية التنوع » لإبراز أهميته في بناء النهضة الحديثة. فإن حازت سطوره قبولا فبفضل الله وكرمه، وإن كانت الأخرى فحسبي بذل الجهد والطاقة رجاء الثواب من ربي فالكما ل له وحده، وإليه نضرع أن يكشف عن أمتنا الكربة، ويذهب عنها الغمة، ويجمع شملها، ويوحد صفها، ويعيد لها أمنها، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،

قائمة بأهم المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا: بعض مصادر السنة، وهي مدرجة ضمن المصادر والمراجع الآتية:

١-إدارة التنوع الثقافي من الحفاظ إلى التزكية «ورقة عمل أعدتها لجنة من مؤسسة المنصور الثقافية للحوار بين الحضارات وقدمتها لندوة» التنوع الثقافي والحداثة: حوار بين الأقاليم« نظمتها اليونسكو في باريس في ٦-٢٠٠٤/٥/٧.

٢- الإسلام والتعددية الاختلاف والتنوع في إطار الوحدة للدكتور /محمد عمارة طبعة دار الرشاد القاهرة الطبعة الاولى١٤١٨-١٩٩٧م

٣- الفقه – كتاب الجهاد- السيد محمد الشيرازي الطبعة الثانية سنة ١٤٠٩ هـ – دار العلوم بيروت.

٤- السبيل إلى إنهاض المسلمين» للشيرازي أيضا الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م، دار المنهل، بيروت.

٥- دينامية وتوليد الشكل المعماري في الطراز المعماري رسالة ماجستير للباحثة /بيداء حاتم سليمان العبودي سنة ٢٠٠٤ بجامعة بغداد .

٦- العنف والديمقراطية، للمفكر المغربي / عبد الإله بلقزيز، منشورات جريدة الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٩م.

٧- معجم لسان العرب. لابن منظور:(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) المجلد الرابع،- تحقيق /عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي- دار المعارف- القاهرة- د. ت-

٨- المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية تصدير د. إبراهيم بيومي مدكور، وإخراج: أحمد حسن الزيات وآخرون، جزآن في مجلد الطبعة الثانية سنة ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م – القاهرة.

٩- المشروع النهضوى العربي للدكتور/ محمد عابد الجابري ط٢- ٢٠٠٠م- بيروت- مركز دراسات الوحدة العربية

١٠- الخطاب العربي المعاصر، قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة للدكتور/ فادي إسماعيل. ط٢- المعهد العالي للفكر الإسلامي- ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م -القاهرة.
١١- تكوين العقل الحديث تأليف / جون هرمان رندال - ترجمة د. جورج طعيمة ومراجعة: برهان دجاني، وتقديم د. محمد حسين هيكل- ط٢- ١٩٦٥م- دار الثقافة العربية- بيروت.
١٢- الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية - د. توفيق الطويل ١٩٩٠م- دار التراث الإسلامي- القاهرة.
١٣- نيتشه للدكتور/عبد الرحمن بدوي - الكويت- ١٩٣٩م.
١٤- تشكيل العقل الحديث تأليف /كرين برينتون - ترجمة/ شوقي جلال- ٢٠٠٤م - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.
١٥- فلسفة ما بعد الحداثة تأليف /سان هاندن: ضمن مجموعة أبحاث بعنوان: مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين- تحرير: أوليفر ليمان- ترجمة: مصطفى محمود محمد- عدد محرم ١٤٢٥هـ- مارس سنة ٢٠٠٤م -سلسلة عالم المعرفة. وزارة الثقافة- الكويت.
١٦- المعجم الفلسفي: مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
١٧- دراسات معرفية في الحداثة الغربية للدكتور/ عبد الوهاب المسيري: - ط١- ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م- مكتبة الشروق الدولية.
١٨-« الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت: (٩١١هـ)تحقيق: مركز هجر للبحوث الناشر: دار هجر - مصر سنة [١٤٢٤هـ . ٢٠٠٣م
١٩-جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠)تحقيق: مكتب التحقيق بدار هجر الناشر: دار هجر.الطبعة الأولى.
٢٠- الجامع لأحكام القرآن للإمام: أبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبي

بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ,١٩٦٤
٢١-تفسير القرآن العظيم للإمام أبىرالفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [٧٠٠ -٧٧٤ هـ]تحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
٢٢- التعددية في مجتمع إسلامي» تأليف جمال البنا طبعة دار الفكر الإسلامي.
٢٣-الجامع الصحيح للإمام: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) الناشر: دار الشعب – القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ – ١٩٨٧).
٢٤-الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم للإمام أبيرالحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري الناشر: دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة . بيروت).
٢٥- سنن أبي داود المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الناشر: دار الكتاب العربي . بيروت ٢٦- الجامع الصحيح سنن الترمذي للإمام: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.
٢٧- سنن ابن ماجة» أبو عبد الله محمد بن يزيد القز ويني(المتوفى: ٢٧٣هـ)كتب حواشيه: محمود خليل الناشر: مكتبة أبي المعا طي.
٢٨- الميزان في تفسير القرآن للسيد محمد حسين الطباطبائي: الطبعة الأولى ١٩٩١م، مؤسسة الأعلميرللمطبوعات، بيروت.
٢٩- المقابسات لأبي حيان التوحيدي ص ٨٣ بتحقيق /محمد توفيق حسين ط دار الأدب.بيروت سنة ١٩٨٩م.
٣٠- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان للإمام: محمد بن حبان بن أحمد

بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدرامي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ) ترتيب: علي بن بلبان بن عبد الله، علاء الدين الفارسي، المنعوت بالأمير (المتوفى: ٧٣٩هـ) الناشر: مؤسسة الرسالة مصدر الكتاب: موقع مكتبة المدينة الرقمية.
٣١- موطأ الإمام مالك للإمام: مالك بن أنس أبو عبدا لله الأصبحي الناشر: دار إحياء التراث العربي –مصر تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي باب ماجاء في المهاجرة.
٣٢- مختصر الأحكام[مستخرج الطوسي على جامع الترمذي] للإمام: أبي علي الحسن بن علي بن نصر الطوسي [٢٢٢هـ - ٣١٢هـ]تحقيق: أنيس بن أحمد الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.
٣٣- معجم الصحابة للإمام: أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي المتوفى: ٣١٧ المحقق: محمد الأمين بن محمد الجكني الناشر: مكتبة دار البيان – الكويت.
٣٤- السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي للإمام: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي مؤلف الجوهر النقي: علاء الدين علي بن عثمان المارد يني الشهير بابن التركماني المحقق: الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد الطبعة: الطبعة: الأولى . ١٣٤٤ هـ.
٣٥- أقضية رسول الله ﷺ «لأبي عبد الله محمد بن فرج المالكي ص ٣٥، ٢٣. تحقيق /د محمد ضياء الرحمن الأعظمي ط القاهرة سنة ١٩٧٨,٣٦-
٣٦- الملل والنحل للإمام أبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ت (٥٤٨) تصحيح وتعليق الأستاذ أحمد فهمي محمد ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط الثانية١٤١٣/١٩٩٢).
٣٧- من فقه الدولة في الإسلام – مكانتها–معالمها– طبيعتها موقفها من

الديمقراطية والتعددية والمرأة وغير المسلمين، للدكتور/يوسف القرضاوي ط دار الشروق القاهرة ط الاولى١٩٩٧ م –
٣٨- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد تحقيق /محمد أبو الفضل إبراهيم. ط القاهرة سنة ١٩٥٩م.
٣٩- التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة للإمام الباقلاني تحقيق /محمود محمد الخضيري ود محمد عبد الهادي أبو ريدة ط القاهرة ١٩٤٧م.
٤٠ صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي للفيلسوف الاستراتيجي الأمريكي:صامويل هنتنجتون ترجمة الدكتور/ مالك عبيد، د محمود خلف الناشر:الدار الجماهيرية: ليبيا- الطبعة الأولى ١٩٩٩.
٤١- أضواء على الثقافة الإسلامية للدكتورة/نادية شريف العمري ص١٦٠ ط مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع لبنان ط التاسعة١٤١٩/١٩٩٨م.
٤٢- الخطر الصهيوني أو بروتوكولات حكماء صهيون ترجمة محمد خليفة التونسي.
٤٣- مكايد يهودية عبر التاريخ لعبد الرحمن الميداني.
٤٤- مؤامرة الصهيونية على العالم تأليف/أحمد عبد الغفور العطار.
٤٥- المقالة الثالثة: «تحركات السياسة الأمريكية على أرض مصر» العدد ٧٣٥ القاهرة في ١٩٨٣/٢/١٤ من كتاب « الاستعمار والصهيونية وجمع المعلومات عن مصر» تأليف: الأستاذ الدكتور حامد عبد الله ربيع [ضمن سلسلة نحو وعى سياسي واستراتيجي وتاريخي].
٤٦- الأبعاد الفكرية والعلمية التقنيّة للصراع العربي الصهيوني للمؤلف: د.خلف محمد الجراد من منشورات اتحاد الكتّاب العرب- دمشق ٢٠٠٠.
٤٧- التنوع الثقافي في العالم الإسلامي بين الخصوصية والعالمية مقال

للدكتور /سعيد بن سعيد العلوي كلية الآداب الرباط.
٤٨- الدعوة الإسلامية دعوة عالمية. للدكتور /محمد الراوي ط مكتبة العبيكان ط الأولى١٤١٥هـ/١٩٩٥م)
٤٩- شروط النهضة« لمالك بن نبي ترجمة عمر كامل مسقاوي ود عبد الصبور شاهين ط دار الفكر دمشق.
٥٠-) تفسير المنار ١٦/١للشيخ: محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى ١٣٥٤هـ)الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٩٠ م.
٥١- الإصلاح الشامل أو المجازفة بالمصير لمحمد جابر الأنصاري، مجلة الاجتهاد، عدد ٥٥و٥٦، صيف وخريف ٢٠٠٢.
٥٢- أسباب التخلف وسبل النهوض مقال للدكتور /محمد عمارة نشر في مجلة (المعرفة) عدد (٣٣) بتاريخ (ذو الحجة ١٤١٨هـ -أبريل ١٩٩٨م).
٥٣- قضية الأصالة والمعاصرة في فكر الأستاذ أنور الجندي بين النظرية والتطبيق » د/رمضان عبد الباسط سالم بحث منشور في المؤتمر الدولي الذي عقد في كلية دار العلوم جامعة المنيا بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية بعنوان «مناهج التجديد في العلوم الإسلامية والعربية» في الفترة من٥-٧ مارس ٢٠٠٥ وطبع بمطبعة مصر للخدمات العلمية القاهرة ط الأولى ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م وبرقم إيداع٢٠٠٤/٢٢٢٣٩.
٥٤- الدولة السياسية والدولة الاقتصادية، كيف نستفيد من تجربة دول أسيا الشرقية، وهو عبارة عن بحث قدمه الأستاذ (الفضل شلق) في مجلة الاجتهاد، (عدد ٥٥و٥٦، صيف وخريف ٢٠٠٢) مصدر سابق.
٥٥- الوحدة الثقافية وأثرها في ائتلاف الصف الإسلامي للدكتورة/ مريم آيت أحمد بحث منشور ضمن « كتاب الأمة الوسط التنوع والاختلاف» من إصدارات الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

٥٦- الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية« الحرة لأبى الحسن الندوي نشر: مؤسسة الرسالة سنة: ١٤٠٢ – ١٩٨٢.
٥٧- حضارة وادي درعة من خلال النصوص و الآثار«للمحقق المغربي /محمد المنوني مجلة دعوة الحق، العدد ٢، السنة السادسة أكتوبر ١٩٧٣.
٥٨- العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين. للمحقق المغربي /محمد المنوني ، الطبعة الثانية مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة، الرباط:١٩٧٧م.
٥٩- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف الممنوع والتفرق المذموم للدكتور :يوسف القرضاوي ط دار الشروق.
٦٠- فيض القدير شرح الجامع الصغير« تأليف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرءوف بن تاج العارفين بن علي المناوي (المتوفى: ١٠٣١هـ)الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م.
٦١- مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح «تأليف: أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري (المتوفى: ١٤١٤هـ) الناشر: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند الطبعة: الثالثة – ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م

ثانيًا:

التفسير وعلوم القرآن